[الأحبـــاب]

وما الدهر إلا هكـذا.. فاصـطبر لـه

رزيـــة مـــال، أو (فِـــراق حبيـــب)

(أُمّي) .. الثانيــة (*)

بدءاً .. العنوان: من قوله ﷺ : { الخاله بمنزلة الأم } رواه البخاري.

وكما بدأت في مطلع هذا (الجزء) برثاء أمي، فلا ضير - قياساً - أن أبدء مطلع (الأحباب) بالأم الثانية../ الخاله (عائشة) رحمها الله.

إيحاء :

ولا يُنبئــك عــن خُلــق[٢] الليــالي كمــن فقــد الأحبّــة والصــحابا

كنت أظن، أو زعمت لنفسي أنني قد أفرغت عما يُهيّجها من الأحزان في مادة (وداع الأحبة) [٣].

ولم يدر بخلدي ألبته أن فراق كل خليل أسى يبعث الأسى!

أو **(شجا يبعث الشجا)** – كما قال (مالك بن نويرة) -، وهذا ربما مراد ذاك الحكيم القائل :

(من أراد البقاء فليوطّن نفسه على المصائب) [٤].

(*) أتت هذه (المادة) بمكانة التقديم لكتابي: (هادم اللذات)(* *).. إصدار ١٤٢٥هـ - ص١٣.. تحت عنوان: (إيحاء) –.

وذاك – سببه – أنني لم أعلم بوفاتها إلا بعد مضي أكثر من شهر (إذ كُنت خارج الوطن) فلم أجد بُدّاً وقد انصرفت المناسبة.. من تضمينها كتابي ذلك " تأبين" لها- .. وإثباتاً لمقامها في القلب –

- (**) ولعل إفرادي لها (هناك) هو من باب منحي (إهداء) ذلك: المؤلَف لها..، حين أبّنتُها بمطلعه-

(٢) أي : طبعها - .. والبيت/ لأحمد شوقي -

(٣) .. مادة نُشرت في المجلة العربية – عدد ١٤١٦/٦هـ-، ثم توسّعت بها، فألحقتها بكتابي (ديوان البيان) ط عام١٤٢٠هـ (ص٢٤٢، وما بعدها).

(٤) واستطراداً - كما تقدم ص ١٠٢-: إن التأسي أكثر مُعين على السلوى وكذا التعزّي بالغير، كما وضّح الحديث: { تعزوا عن مصائبكم بي} – رواه أحمد – رافداً لهذا، وكما قالت الخنساء رضى الله عنها – في رثاء أخيها (صخر) - : =

ولا غرو، أن الإنسان إذا ما طال عيشه لقي من (فراق) أعزاء، وأخلاء الكثير! – فالواعظ يقول : " إن الموت تخطّاكم لغيركم، .. الخ "-

ويصدّق على هذا: استشهاد الإمام البخاري حين نُعي له الدارمي[1] – رحمهما الله – بـ :

إن تبــقَ تُفجــع بالأحبّــة كلــهم وفنــاء نفســك لا أبالــك أفجــعُ

ولم أبلغ من العمر أن أتمثّل بهذا، لكن.. وفاة الخالة – و.. الأم الثانية-.

(عائشة بنت عبد العزيز المطلق) – رحمها الله.. ووالديها رحمة واسعة- أثناء توارد فكرة هذه (الرسالة) [2].. مما عطفني – .. وقد رحل الغوالي قبلها كـ (أمي.. ثم تبعها أبي) رحمهما الله – ومما يُردد : **(ومن عادة المحزون أن يتذكّرا)**-

.. أن أُطبق شيء من تلك الحكمة .. على سمتي.. و .. و .. ، فـ :

" إن موت بعض الأشخاص يجعلك في حزن مستمر " هكذا.. قال أحد الفلاسفة – وقد تقدم معنا أن : هناك من يذهب فتذهب السعاده معه! -

أو- على الأقل.. لها – بما يوازي قول (أحمد الزيد) :

رضى الله عنها – في رثاء أخيها (صخر) - :

=

= **فلولا كثرة الباكين حولي على أخوانهم لقتلت نفسي**

أي التأسي بمثل ما أُصيبوا.. إننا في هذا الفقد سواء!

(١) .. هو علاّمة عصره (عُثمان بن سعيد الدارمي) – رحمه الله -

(٢) كما تقدم في الصفحة السابقة حاشية (**) الهامش .

أأرثيـكِ يـا (أُمّـي) الثانيـة! وأبكيـك أيتهـا الغاليـة

- فما وجدت نفسي .. إلا تُردد :

أبكيـكِ لـو نقـع الغليـلُ[١] بُكـائي وأقـول، لـو ذهـب المقـال بـدائي

وألـوذُ بـ (الصبر الجميـل) تعزّيـاً[٢] لـو كـان بالصـبر الجميـل.. عزائـي

كذا قال المولى على لسان يعقوب عليه السلام ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ (يوسف ١٨) وهو/ وقد تقدم: الذي لا شكوى فيه.. أو معه - كما بيّنه ابن عباس ﷺ-.

وأقول.. بصدق: أني أكتب هذا والانفعالات تتحكم بمفرداتي، وتُوَجّج جمّ من مشاعري .وتبعثر ركام عواطفي من آلمي على فراقها، حتى كادت تُغالب تعقّلي، وتسدل بوشاح قاتم على نسج كلماتي!

لذا .. لا عجب أن يجدها (القارىء) مختصرة ، فالحال.. هنا كما شرحت!

ثم، أو هكذا أجدني.. أو أجد مؤلّفي هذا[٣] مُشيّع بفراق (عزيز) آخر، نسأل الله حُسن الخاتمة – والعاقبة – أنه نعم المجيب ذو (الفضل والإنعام).

وصلى الله وسلم على رسولنا محمد ، ، ،

---

(١) وهي بالمناسبة: اللفظة الوحيدة التي تقال ../ عن (شفي) من غير مرض.

(٢) فإني .. لأجزم أني :

ما كنت أذخر في فداكِ رغيبة (لـو) كان يرجع ميّتاً بفدائـي

(٣) الضمير يعود على كتابي: (هادم اللذات).. والذي تمّ تصديره بهذا التأبين لها – رحمها الله -

بكاكِ .. ذووكِ والأقربون (*)

الحمد لِلهِ الذي جعل لكل شيء بلاغا إلى حين، والصلاة والسلام على أسوة المتأسين وقدوة الصابرين، والذي كان في رحيله عزاءٌ للمومنين.

هذا عذر الأفئدة على رحيل مقام الوالدة: **(منيرة بنت عبد العزيز المهيلب)** المعروفة بـ (مدينة)-.. أم/ إبراهيم بن عبدالله الدخيل .. -

فلـو كـان النسـاء كمـن فقـدنا لفُضِّـلت النسـاءُ علـى الرجـالِ

أجل، أو هكذا أحسبه قال بمثلها.. طيّب الشعر (أبو الطيب) المتنبي.

فما نجد نحن في قدرها مثل قوله – إن لم تجيد دموعنا كنسجه-

فـ/ إن الموتَ حالٌ يقف أمامه المرء مذهولاً مشدوهاً.. لا يعرف كنهه، ولا كيف وقعه، ولا حال ضرفه، أو مكانه أيضاً ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴿٣٤﴾ ﴾ (لقمان ٣٤) حتى تحتاط له، وتأمّل بما قبله، وتستعد للقائه.

.. ولعل هذا من أبلغ الحِكم: (الظّاهر منها.. لنا) بإخفائه(٢)!

وإلا لما هنئت نفس بأكل ، ولا رويت من مشرب، ولا ذاقت عينٌ كرى..

.. وهو (قمّة) المصائب وجليل الأرزاء، لأنه بحق الـ (مُهيّج) لذي الجلد، الممتحن للصبور وإن أفشى ما تكنّه العيون بـ (دموع)(٣)، والتي هي – والله أعلم -:

(*) مادة .. نُشرت في الجزيرة عدد (١٢٢٥٧) ، في مطلع ربيع أول ١٤٢٧هـ.

(٢) وانظر بسطاً (خامساً) فيما تقدم – ص٦١ فما بعدها -

(٣) التي أسماها رسولنا ﷺ بـ : { إنها الرحمة } ، أو هكذا وصفها.

الرحمة بالميت، وبحاله.. ثم عطفاً على من ودّع، وكذا أثره – بعدُ- وتأثيره بمن ترك!

- يُـــراد مـــن القلـــب نســـيانكم وتـــأبى الطّبـــاع علـــى العاقـــل[1] -

ولأن استجليتُ غالب هذا الأثر ممن حولها، فما البال.. بأولادها ذكوراً وإناثاً ، وأحفادها صغاراً وكباراً، وأخلاّئها قريبهم.. والبعيد، ولسان حالهم يبدي على فراقها.. ويعيد بـ :

بنتمُ.. وبنّـا، فمـا ابتلـت جوانحنـا شـــوقاً إلـــيكم.. ولا جفّـــت مآقينـــا[2]

أجل فلقد فقدنا (جميعاً) قبل بضعة أيام والدةً وأمًّا ، .. ومرفئاً جميلاً يُلاذ إليه - تروّحاً - من أتعاب الحياة.. و(دوحةً) كبيرةً تتفيَّأ القلوب تحت ظل - تُصوَّب حنانها وترتشف من وهج نهرها العذب ومنطقها الذرب/

وذاك : عن (عمر) مبارك طيّب ناهز الخامسة والسبعين، قضته في الطاعة، وصرفته في العبادة، نحسبها كذلك، بما نعلمه[3].. لأننا :

ثم اللافت – غير المستغرب- في رحيلها: هذه الجموع المُجْمعة على فضل شخصها ومقام أثرها، وبصمتها البادية على وجوه مُحبّيها (آن وداعها).

---

(١) المتنبي.

(٢) .. كما يقول (ابن زيدون).

(٣) .. فما نحن إلا {شهود الله في أرضه} -.. كما في الحديث-.

وما ذاك.. إلا أن هناك.. من وُهِب من (الوهاب) سبحانه جمٌ من الخصال الحميدة والسجايا النبيلة مع أُلفٍ .. نفسٍ كريمة، لما يعطفك إلى التأثّر لفقده.. ولو كان بعيداً!

فما الحال بمن هي بمنزلة (الأم)، ومكانة (الوالدة).. في حنوّها وعطفها وتشوّقها ولو عن بُعدٍ.. – بسؤالها عنك..- ولطفها .. الخ.

والحقيقة لا يُسمّى كلُّ غياب[1] غيابُ ،ولا يُنعت كل مفقودٍ بهذا..!

إلا إن كان شخص الغائب يَملأ حياة من حوله ويضم عقد أصحابه، ويجمع شمل ذويه.. كمثل فقيدتنا، و التي تولّى مع فراقها (دُنيا) وصفاء ونقاء، و(شمس) كانت تُضيء... - أجل، إني لـ: **أرى الباكين فيكِ معي كثيراً** –

و(روح) تلمّ بجلّ خصالها- .. مع لفيف من قرابة وصحبة لرحابة نفس لا تكل ولا تمل، .. ولا تفتأ في سؤال عن غائب، أو دعاء لواجد، أو عون- ولو (معنوي) - عبيره يُشفي، ويكفي عما سواه.

هذه – أو كهذه – عندها تُفتقد .. بحق، كما علل أبو الطيب :

وأعــزّ مــن وجــدنا مــن فقــدنا قُبيـــــل الفقـــــد مفقـــــود المثـــــال

فهي - بما نحسب-: (طُهرٌ) وبريق حياة.. مضيء أثرها، وأحزان وأوجاع أتت لذويها!.. ، فمن يملأ فراغها أو يوازي مقامها، أو يفي نقص ثلمها؟!

---

(١) وانظر ثنايا مطلع.. ص ٩٤ فما بعدها -

.. ونعمٌ: هكذا تكون (بصمة) أهل الطّاعة.. والخير .. والفضل، فما الحال لمن جمع الحُسنين – حُسن العمل.. وحسن المعاملة -

.. ويكفي أن كل من يدلف بيتها يجد من سماحة قلب ولطف معشر وابتسامة لا تُفارق مُحَيّاها..، ك: شاهدٍ (باقٍ)..، وصورة عالقة في ذهن كل من عرفها.

هل أفيض، أو يكفي ما بين الأسطر من مقصد.. وآفٍ؟!

أو أُتمّ فأبثّ: .. عن: (فر... اغ) ما تركت، بخاصة لمن لهم أثر مباشر من بنيها.. وفي مقدمتهم - هنا-: الأبناء والبنات، ك (أم تركي) ابن أخي عبد العزيز، و (أم عبدالله) ابن أخي أحمد.. وذريتهما: .. (أحفادُ أبي)

الذين أخصّهم بالعزاء، ثم: للباقي منهم.. بالمواساة على رحيل هذه : الـ (مدينة) – وهي كاسمها [1]-.

فـ/ هذه (الأم) الكريمة في صفائها، وبقائها، ونقائها، المعطاءة في بذلها .. الجليلة في مكانتها النفسية في عُلاها، والتي كانت: رضيّة- ولطيفة- في نفسها، سمحة في معشرها، هادئة في طبعها، مع دُعابة ومُمالحةً أُلفت عنها، بل وأحسبها من (الباقيات) في القلوب- لما تركت من بصمة في كل من عرفها –

أما الأفضل (لها) : فتلك : (الباقيات الصالحات) التي هي ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَى لمن أتقى﴾ [طه٧٣] لمن أتقى، فقد كانت:

---

(١) انظر ثنايا ما تقدم ص ١٥٤ مع هامش (١).

صوّامة قوّامة.. لا تفتأ عن الذكر وقراءة القرآن ، وتقضي غالب وقتها قرب بيت الله (الحرام) لتدعو للمسلمين عامة، وترجو الخير لكل مؤمن.

فلتبشر بخير عظيم وفضل عميم، وَعَد به المولى كما قال تعالى : ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ (محمد ١٥) : كل مَن نهج طريقه، و .. وجل[1] قلبه إذا ما ذكر ربّه، واقتدى بالصالحين، ونهج طريق المتقين.

فاللهم تقبّلها واغفر لها وارحمها واجعل مثواها .. ووالديها، وذريتها: ﴿ ۞ جَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ (ال عمران ١٣٣)

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على إمام المرسلين، ، ،

(١) ... كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ (الأنفال ٢) أي : خافت.

فـــراق الأحبـــاب [*]

الحمد لِلهِ الذي له ما أخذ وله ما أعطى وكل شيء عنده بمقدار، وصلى الله وسلم على من اختار على الخلود حسن الجوار[٢].

قال أبو العتاهية :

شيئان لو بكت الدماء عليهما ... عيناي .. حتى يؤذنا بذهاب

لم يبلغا المعشار من حقّيهما: ... فقد الشباب.. و (فرقة الأحباب) [٣]

.. لا أعلم – والقضاء و(القدر)[٤] بيد مُقدّر المقادير (سبحانه)- .. كم فقدنا فقدنا في هذه الفترة من الأعزاء من علماء[٥] وأجلاء وأحباب، و .. و ... أجل:

إن تبق تُفجع بالأحبّة كلهم .. وفناء نفسك (لا أبا لك) أفجعُ-

و/ كان آخرهم مقام " الوالد " الكريم والحبيب الخلوق:

الدكتور (**عبد العزيز بن علي بن سليمان الزامل**)[٦] ذا القلب الكبير[٧]، والخُلق الجميل.

(*) نشرت في (الجزيرة) عدد/ ٩٩٣٢ – تاريخ ١٤١٩/٦/١هـ.

(٢) كما في إيضاح – هامش (٢) ص١١-

(٣) وأكد ذلك – حديثا – (العشماوي) بـ :

رحيل أحبابنا نار مؤججة ... تُذيب أكبادنا وجداً .. وتصليها

(٤) .. وانظر سادسا .. – ص٦٥-.

(٥) إذا تتابع بتلك الفترة/ رحيل ابن باز والألباني والطنطاوي.. رحمهم الله، انظر تصديقاً: ما تقدم ص١٩٢– في قول (إبراهيم التركي)، وكذا هامش (٤) ص ١٩٧ -

(٦) .. الذي وُلد بعنيزة(*) عام ١٣٥٦هـ، ودرس بها ثم انتقل إلى البحرين لمتابعة دراسته، حيث كان والده والده - يرحمهما الله- يعمل هناك، حتى أتم المرحلة الثانوية، وانتقل لدراسة الطب بألمانيا حتى حصل على الدكتوراة في طب الأطفال عام، ١٩٧٧م، وعاد بعد تخرّجه ليعمل بـ (المستشفى الوطني)، ثم .. تفرّغ للعمل الخاص عام : ١٩٨٣ ، ففتح عيادته الأولى، وتوسّعت/ في عام ١٩٩٣م، وفي عام ١٩٩٦ قام بتأسيس مُجمّع طبّي باسم (مركز الزامل الطبي)(**).

و في مطلع ١٩٩٩م أصيب ببعض الأعراض الباطنية، ولم يُكتشف أنها تليفاً بالكبد إلا متأخراً، فأسعفهُ ابنه أيمن في (سان فرانسسكو) وبقي تحت العلاج حتى وافاه الأجل هناك في جماد الثانية عام ١٤١٩هـ.

- (*) كما تقدم ص ١٩٤: - فأتم - لهذه المدينة، .. مع (القرني) حسبها: **أن (دكتورنا) منها** –

- (**) أي: أخذ مسمّى (العائلة)، .. ويُدار بكفاءة من قِبل ابنه (أيمن).. والذي ورث عن والده جمّ من خصاله النبيلة، حفظه الله ورعاه-

(٧) وذكر لي صديقي - و (صهره)- " ماجد بن عبدالرحمن البطي" مقولةً علقتني للأديب حمد القاضي :

(.. لو كان بوسع الصغار أن يُشيّعوا.. لتقاطروا.. من كل حدب وصوب) – إذ كان رحمه الله/ ذا لطفٌ لا ينسى من لدنهم-

وكنت في رحلة خارج الوطن فكانت مفاجأة أليمة، ولا راد لقضاء الله، وقد فجعت فيه فتذكرت قول القائل:

قد كان ما خفت أن يكونا إنا إلى الله راجعونا

وإذا كان (فرانكلي) يقول : (لا شيء مؤكد سوى الموت) فإن الذكر الحكيم سبق إلى تأكيد ذلك المفهوم : ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر٩٩] واليقين هو الموت، والموت (بطل) **يسعى بلا رجل ويصول بلا كفّ**، كما يقول (المتنبي).

.. ورغم أنّه سنّة الحياة، إلا أن خبر وفاته كان مفاجأة لي، والله غالب على أمره، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

.. لكن هذا الفقد رزء يُتعب الذات حمله، ويثقل القلب خطبه..، وصدق الناظم:

وكل مصيبات الزمان وجدتها - سوى فرقة الأحباب - هيّنة الخطبِ

ولقد فقد الوطن برحيله : علمٌ في (طبّ الأطفال) [1] وأستاذاً في ذلك، وشخصية آثرت .. وأثّرت بمن حولها، .. تعاملاً وطيبة وسماحة وخُلقاً عالياً، صاحبهُ رحابة صدرٍ وآسع، ولين جانب، وابتسامة دائبة، ونصح دؤوب.. - لكل من أمّه ، علاجاً كان أو مشورة-

.. عرف ذلك فيه كل من خالطه أو عاشره عن قرب ..، أو كان له حظّ في التعامل معه، لكنّي أبشّرك يا (فقيدنا) بقول رسول الله ﷺ : { يبلغ المرء بحسن خلقه درجة الصائم القائم } - نحسبك كذلك .. ولا نزكي على الله أحد- :

كل حيٍّ عند منيّته حظّه من ماله " الكفن" [2]

---

(١) إذ/ قام - يرحمه الله بتأليف (كتاب) - وهو عبارة عن ملف طبي متكامل للطفل - ليكون مرجع مرجع عن حالة الطفل في أي مكان، وزوّده بجميع المعلومات اللازمة، وأسماه: (سجل الطفل السليم) .. وقد طبع الكتاب عدّة طبعات، وكان يرحمه الله يعكف على تأليف نسخه جديدة مُحدّثة للكتاب تشتمل على جميع التطورات الطبية، ولكن لم يسعفه أجله الذي حل قبل الانتهاء منه - أبلغه الله أجر (نية) ما كان يصبو له -

(٢) .. كما يقول - مقرراً - أبو العتاهية ،وقال الآخر :

يكفيك من جمع الدنيا ولذتها هل راح منها بغير الطيب والكفن!؟

وأضاف في هذا المعنى حديثا أحدهم:

نصيبك مما تجمع الدهر كلّه رداءان تُلوَ فيهما وحنوط

إنّ مـــال المـــرء لـــيس لـــه منـــــه.. إلا ذكـــــرهُ الحســـــن

ولا أقول بهذا تزكية، لكن (شهادة) : لما لمسته بنفسي من (شمائل) هذا الرجل التي تجعلك تتوارى من عدم الاستطاعة على الرد بما يناسب ما يُبديه لك – رحمه الله – والتي أسأل الله الكريم أن يدّخرها له بالدار الآخره.

ومـــا (الباقيـــات) لكـــل امـــرىء ســـوى الصـــالحات وحُســـن الـــذكر

وهذه الأخلاق الفاضلة الجمة أكاد أجزم أنها عريقة في شخصه.

.. فوالله إني لقيت.. وخالطت أُناساً كثيرين منهم العالم والغني والأمير.. والوزير ، لكن قلّما وجدت بهم من يدخل قلبك بهذه (السهولة)، من سماحة فائضة ولطف معشر وقرب نفسٍ تُحسّسك.. من خلال بشرها أو تباشرها بك/ وكأنك تعرفها من مدة طويلة!

فما ظنك بمن (ملك القلوب) [1] التي عرفته.. وكذا تلك التي سمعت عنه وعن سيرته.. الخ.

إذ كان من بشره يبتدرك قبل أن تُتمتم بشيء يُحسّ منه خجلاً أو عذراً!

بل كان رحمه الله لا يقبل أن تقدّم بين يديه قرابين الأعذار في أي أمرٍ مهما كان عِظم طلبك منه، إذ كان يسبق تمتمة شفتيك.. بإكفائك مؤونة ما أعددت .. بتبسّطه الفائض.. والظاهر على شخصيته.

- وأقول فيك .. قول (د. سليمان المنصور) :

أحقـاً مـت يـا عـذب السـجايا؟ لقـد أشـعلت في القلـب الشـظايا-

(١) يظن أقوامٌ أن السعادة تكون بالأخذ!، .لكنهم سرعان ما يكتشفون أنها موجودة في العطاء - كـ : صفح عن مُسيىء، زيارة مريض، صلة قريب، عمل أمر غير مطلوب منك مباشرة، إبتسامة .. ألخ .

وهذا أقول به مما شاهدته بنفسي ، إذ كان (أو من سمتي) أن الحياء يغالبني ممن أتعرّف إليه .. فكان يسبقني إلى الكفّ عن العذر - أو الاعتذار .. -

أمّا صبره على الألم فهو عجب آخر.. مما شاهدت منه!

فقد زُرته في المستشفى .. وقد أرهف إلى عتبي على صديقي ابنه (أيمن): لما لم يُبلّغني خبر تواجده على السرير إلا قريباً؟

فكان جوابه جدّاً مُذهلاً – رغم ما يقاسي - بـ : (أبداً .. الأولاد ألحوا!، والا ما فيني إلا العافية)، وأبشّره وأمثاله بجزاء .. ما وعد الحق : ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ ﴾ (الحج ٣٥) .

فرحمك أهل الرحمة، وشملك بمغفرته ورضوانه، وأسكنك فسيح جِنانه، وأخلف عليك داراً خير من دارك.

فـ/ اسمح لقليل بحقك .. من مقلٍّ عن شخصك الاستشهاد لك – مع أثر المُصاب.. مما يوازي بعضه مالك في الجنان، بقول ابن الرومي :

سلامٌ.. وريحان، وروحٌ ورحمة عليك، وممدود من الظل سجسج

ويا أسفي.. أن لا يردّ تحية سوى أرج من طيب نشرك يأرج

ألا إنما ناح الحمائم – بعدما ثويت، .. وكانت قبل ذلك تهزج

فإن أنسى! لا أنسى أبداً قولك لي – أكثر من مرة - : أنت كابني (أيمن) .. فهي كلمة عالقة في ذهني – مما يحويه معناها - .. وتظل تتردد كلما ذكرتك، فأنت بحقٍ والدٌ ما ولدْ.

فإليك يا مقام الأب، وقريباً إلى القلب، دعوات ابنٌ لك – يفي بعضها – وإن كان لا يكفي - :

(أستغفر الله) لشخص مضى كان تواضعه منتهى ذنبه[1]

---

(١) أبو الطيب المتنبي - بتصرف -

.. وكـــان مـــن عـــدد إحســـانهُ كأنمـــــا أفـــــرط في ســـــبّه

وتبقى هذه الكلمات – من عبير الخاطر - .. من بعض الوفاء الذي هو " ذاكرة القلب " – **حسبي (الوفاء) جزاء كل مفارق** –

.. أما رحيلك – المفاجىء لي .. إذ كنت مسافراً – فلم يسعفهُ منثور حفظي.. سوى ما يردده المؤمن .. الذي يُدرك - كما تُثبته د. (عزة رشاد) – أن :

المـــوت " حـــق " .. إنمـــا دمـــع (النّـــوى) [1] مـــن طبعنـــا

نبكـــي، وبعـــد غـــد علينـــا ســـوف يبكـــي بعضـــنا

هـــذه هـــي " الـــدنيا" تـــدور ولا يـــدوم بهـــا الهنـــا

.. ف ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾ (البقرة ١٥٦)

الكـــل يرجـــع للثـــرى وتـــدوم عـــزّة ربنـــا

.. فإلى بنيك " أيمن " و " نايف " .. وكريمتك ووالدتهم العزيزة، وذويك ومُحبّيك: حسن العزاء وجميل الصبر والسلوان..، والحمد لِلهِ كريم الإحسان والصلاة والسلام على خير الثقلان وآله وصحبه ومن تبعهم بإحسان.

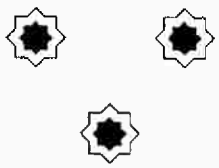

(١) أي : الفراق.

وداعاً، يا (وجه السماحة) (*)

الحمد لِلهِ على قضائه والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه..

يُفقـــد (الطّيبـــون) والنُـــبلاء وعلـــى مثلـــهم يكـــون البكـــاء

نعم هو الموت الذي لا يجد المرء أمامه.. إلا التسليم لخالقه(٢)، وقد تساوى به به الخلائق، .. قال الجاهلي (عبيد بن الأبرص) :

أبلـــغ بـــنيّ وأعمـــامهم بـــأن (المنايـــا) هـــي الـــواردة

لهـــا مـــدة.. فنفـــوس العبـــاد إليهـــا(٣) – وإن كرهـــت – قاصـــدة

فـــلا تجـــز عـــنّ لـــ (حِمـــام) دنـــا فللمـــوت مـــا تلـــد الوالـــدة

.. لم يدر في خلدي - البتّةَ- أنّ أوّل ما يستقبلني في عودتي للوطن.. هو :

خبر رحيلك فـ: ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾ (البقرة ١٥٦) جملة من (آية) باقية، وتردد في عقب كل مفقود، بل.. وأُمرنا بهذا.. مع اليقين- أي التسليم - بمضمونها، أننا: (أماناتٌ) تعود لمالكها متى استدعها(٤)- .. طلبها -، هكذا:

خلقنـــا للحيـــاة وللممـــات ومـــن هـــذين كـــل الحادثـــات(٥)

وهذا .. تعليل مبسّط عن سبب الإقامة في الدنيا ، ومن ثم (الرحيل) للآخرة ..، إذ هو حتمي! لكن هي النفس البشرية، المبنية على الضعف أمام الموت

(*) نشرت في صحيفة الجزيرة عدد ١١٦٧٠ الجمعة ١٤٢٥/٧/٢٥هـ.

(٢) كما قال سبحانه : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ ﴿٢﴾ ﴾(الملك ٢) .

(٣) الضمير: يعود على (المنايا) – في البيت الأول -

(٤) .. انظر إيضاحاً نقطة : (الرضا) ما تقدم / ص١٠٢ .

(٥) أحمد شوقي .

- بخاصة-، فـ يحزن القلب، وتذرف العين .. أو كما اسمها قدوتنا ﷺ: {هذه الرحمة.. يا بن عوف}[1] - وقد تقدم - ، فنحن بشر نتأثر بفقد عزيز، ورحيل غالي ، وبين سنيُّ الشمائل، بخاصة إن كان كفقيدنا الغالي ذا الخُلق العالي:

(صالح بن سليمان بن عبد الله الجربوع) – ١٣٧٣/ ١٤٢٦هـ -

رحمه الله رحمةً واسعة.. ووالديه:

فـإني سـهرت كـثيراً، وكنـت ... إلى (ذكرياتـك) أُطيـل النظـر

وإن الكواكـب كانـت تغيـبُ ... وتُبقـي بقلـبي جليـل الأثـر

و (أبو محمد) امتلك مساحة واسعة من القلوب، بدماثته وسماحته وحسن تعامله، وصفاء نفسه، التي اصطبغت به، فلا أظن من يعرفه إلا و.. أوّل ما يذكر – عندما يتذكّر – تلك/ الابتسامة التي لا تفارق محياه، وروحه الجميلة، وملاطفاته مع الصغير والكبير.. القريب والبعيد.. – كأن شعاره:

إنمـا للنـاس منّـا ... حُسـن خُلـق ومـزاح -

وأخذ الفعل .. من معنى حديث {.. على من عرفت ومن لم تعرف} .. ذلك في السلام، فما الحال إذا أضفت عليه الابتسامة، تطبيقاً لحديث: { ابتسامتك في وجه أخيك صدقة} ، .. وليس غريباً عليه ذلك الفعل الدائم.. – الدائب - :

ملكـت مودتـه القلـوب ... فأصبحت تلقاه بالتوقير والإعزاز[2]

---

(١) يقصد (عبد الرحمن بن عوف) ﷺ، وذلك بعد أن رأى دموع النبي ﷺ، على ابنه (إبراهيم) ، فتعجّب بـ: حتى أنت؟! – أي : يا قدوتنا -

(٢) لحافظ إبراهيم.

ويعلم الله أني لا أقول بذلك فقط من باب ما جاء في الحديث : {اذكروا محاسن موتاكم}- وإن كُنّا أُمرنا بذلك -، لكني أُدلي بما أعلم عنه، ومن الشهادة التي على كاهلنا {.. أنتم شهود الله في أرضه} صدق ﷺ .

.. هذا عدى عاطفة وأُلفةً.ومساحة من العمر قضيناها بين ردهات ذكريات.، كـ:

(بذور) لعمر جميل رحل - .. معه - ..

فكم لنا من مجلس طيّب ... يشتاقه هارون[1] أو جعفر

نرسل الطرفة محبوكة ... من غيرنا في الحُسن لا تصدر

ونلعب باللفظ كما نشتهي ... ونُضمر المعنى.. فما يظهر

ثم .. وأنا أدرك - بعد .. ما تقدم - أن ليس كل من مات يُكتب عنه[2]، لكن فقيدنا أثّر - وبي شخصياً[3] - تعاملاً وطيبة وبياض قلب ونقاء سريرةٍ.. ومداعبة لطيفة أبقت له ذكرى.. وبصمة تحرّك لها قلمي ليعكس وقعها.. إلى القارىء.

فكم آلمني حين قدمت لزيارته، فوجدت الحال لا تسمح، .. ربما آثر - رحمه الله - على نفسه أن يجد أحباءه أنسداره إثر ألمه، عن الاعتناء بزوّاره، فقامت الحال مقام المقال، أو .. **(فأحال النحول دون العناق)** - أقصد (اللقاء) -.

---

(١) أي : هارون الرشيد- رحمه الله-.. والذي عُرف عنه مجالسه ومؤانسته مع أصحابه - وهذه أبيات من من رثاء حافظ إبراهيم، لقاسم أمين-.

(٢) .. وانظر (تعليلاً) أو شفيعاً ص٩٤- في : قول الندوي -

(٣) .. منذ أوان ألفته و: عن قرب - حين إلتقيته في (لندن) وأنا في مطلع سن البلوغ-

ولكني عدت.. بجسدي فقط- .. أو كما قال مهيار الديلمي عن قلبه:

فســـرنا جميعـــاً وراء الحمـــول ولكـــنِّ رجعـــت.. ولم يرجـــع-

إذ.. أثر الولوج إليه، ليدعوا له، وليحدّثه ويأنس به، ويتذكر بقسماته التي علقت منه بـ لطف معشر، وتواضع جمّ، - .. فـ يعلم الله.. أنك :

مـــا فارقتنـــا طوعـــاً ولكـــن دهـــاك مـــن المنيـــه مـــا دهلـــك-

ويقيني أنّ من فقدوكْ كُثْرٌ - .. وكم/ علّمت بهم، أو.. أبقيت من (ذكر حسن) لديهم.. بتعاملك معهم.

.. ولأن أفئدة كثيرة ودّعتك غيري، قد لا أزيد عنهم.. إلا كُليمات اجترَّهن القلم شهادة.. بإذن الله ، قال بها ذلك (الكم) [1] - ممن شيّعك إلى مثواك- .. عساها تبلغك، وما هذه الكلمات أو مقصدها إلا - أو معناها-: أنه لن يفارقنا إلا جسدك، أما ما أبقيته فإنه عالق.

واسمح لي أن لم أجد من الكلمات ما يوازي فقدك[2]!

لكن هي .. (بعض) حقوق في ذمّة من يستطيع[3] .. ولا يفعل!

حديثـه، وحـديث عنـه يعجـبني هـذا إذا غـاب، أو هـذا إذا حضـرا

كلاهمـا حَسَـنٌ عنـدي أُسـرُّ بـه لكـنَّ أحلاهمـا مـا وافـق النَّظَـرا

.. وأحمد الله أن أكرمني مع الحضور بتشييعه سمعاً وبصراً.

.. كما ولا أنسى دعوةً رنَّت في أُذننا، دوّى بها ببساطته أخي (عبدالله) - ونحن نُنزلك (الثرى) - :

(يا صالح : رحمك الله على قدر شعر جسمك .. آمين)، وآمين آمين.

---

(١) .. وأحسب لهم : فضل الحديث - ص ٩٦-

(٢) .. فـ (إن فجع المصيبة يحبس الفكر عن مدرار الكلام الخليق بالبثّ)! - كما قيل -

(٣) و.. كذا قال (حافظ إبراهيم) :

إلهـي هـب لـي بيانـا أسـتعين بـه على قضاء حقوق.. غاب قاضيها

أي: (أمّن) الجميع.. بعده. – فقد عبّر عن الكثير مما قد يُقال –

عظّم الله لك - على ما أصابك – الأجر ، وأجاد لنا – على مثلك – بالصبر.. ، إذ سيظل مثلك بالقلوب: حيٌّ، بما أبقيت من تعامل.. وحسن أُلفةٍ وعشرة.

المـــرء بعـــد المـــوت أُحدوثـــه يفنـــــى، وتبقـــــى أثـــــاره

.. أما ما أصابك حتى أتى على بنيانك، فلن أتحدث عنه مؤثراً لمن آل على نفسه - بإذن الله تعالى – نيلُ جزاءً أعدّه المولى (للمحتسبين): الصبر، وما وُعدِ أهله.. به من خيرٍ عظيم: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ[1] ﴿٦٠﴾ ﴾ (الزمر ١٠) .

فـ/ فعليك الرحمات – غوادٍ رائحات – :

أو هذه (الدعوات) .. من صدىً لأجنّة[2] أحبّتك.. ، وشيعتك بدموع عيون .. لا زالت بها عالقة!

فـ .. **أودعك الرحمن في ترتبك**[3].

.. وابشّرك :

مَا مـات مَـن ذكـرى محاسـن وصـفه يبـــاهي بهـــا التـــاريخُ حـــين يقـــول

ولو كـان ذاك الشـهم يُفـدى لقُـدِّمت نفـــــوسٌ وأرواحٌ.. وذاك قليـــــل

والحمد لِلهِ من قبل ومن بعد ، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد.

(١) .. وقد تقدّم قول (سليمان بن القاسم) – تفسيراً: " كالماء المنهمر ".

(٢) جمع .. جنان أي : القلب .

(٣) **خيرُ وداع من خير المؤدّينا** (سبحانه وتعالى).

(سما) .. فامتطى شمَّ المعالي بعزمه

لك الله .. يـــــا " نايف " [*] ..

أيها (اليافع) .. الذي – كما قال (أبو تمام) -:

تردّى ثياب الموت حُمراً فما دجا لها الليل إلا وهي من (سندس خضر) [٢]

وإني لأحسبك ممن عناهم الحديث الصحيح ، في قوله ﷺ: { من خير معاش الناس لهم: رجلٌ ممسك عنان فرسه في سبيل الله يطير على متنه كل ما سمع هيعة أو فزعة طار عليه، يبتغي القتل أو الموت مظانه .. الخ}.

ولِلهِ تلكم الدماء الطاهرة التي أُريقت في الله، وفي دينه، والدفاع عن حوزته، والذود عن حياض أهله .

ولِلهِ تلكم النفس التي زكّاها فأوردها مواطن الخير .. بعد أن حثى بها .. حتى جازت مفاوز المكرمات:

فـ أثبت في مستنقع الموت رجله وقال لها : من تحت أخمصكِ الحشرُ [٣]

.. قال رسول الله ﷺ : {سبعة يظلهم الله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، .. منهم : " رجل قلبه معلّق في المساجد .. } – الحديث –

.. وقلب نايف .. – الـ (نائف) عن الرذائل، وكل ما يُشين – معلّق في الجهاد..

ولسان قلبه يردد : قول الشاعر العربي المفتخر بشجاعته والمتباهي ببسالته:

ولسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ولكن على أعقابنا يقطر الدما

ترددت أستبقي الحياة فلم أجد لنفسي حيـــاة مثـــل أن أتقـــدما–

(*) إحدى الشهداء – بإذن الله - .. في موطن.. من مواطن العزّ والكرامة/ أو آن الغزو "الشيوعي" لأفغانستان، وكذا لا أغفل ابن الخاله (عبدالله الحماد) إذ لقي في مواطن العزّ والشرف.. نفس المصير.

– والعنوان : صدر بيتٍ لأبي تمام –

(٢) كناية عن لباس أهل الجنة : ﴿ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ﴾(الكهف ٣١)

(٣) – أي .. هنا تقوم قيامتي –

فما أن يُلامس أحاسيسه جرح في (جسد) الأمة الإسلامية .. إلا وخفّ به قلبه – قبل جسده –.. طائر إليه لا { متداعياً له بالسهر والحمى .. } فحسب، بل بأعز مايملك (حياته) [1].. ومخلّفاً وراءه - مع دعة من العيش -: أمًّا رؤوم.. وأباً حنون، وإخوة وأخوات ، ودنيا تضجّ بالأماني، وأحلام تلفحُ قبل شبابه..

فلك الله أيها المُقدام الذي لم تقم زهرة الدنيا في عينه .. وحناياه تصطرخ ألماً مما يُهيّضها همّاً للدفاع عنه :

وأينمـــا ذكـــر اســـم الله في بلـــدٍ عـددت ذاك الحمـى مـن صـلب أوطـاني

فـ هل نعزي فيك .. أم نُهنىء ذويك!

وهل نذرف الدموع – في خضوع - .. أم نرسم البسمات !

وهل نجهد لفقدك في تتبع ثراك بالحسرات ، أم نشيّعه .. بالتحيات!

وهل نصيغ جُمل العزاء .. أم ننثر كلمات – التهاني – و .. الهناء !

إذ ليس بـ (المداد) ما يصل لما خطاه .. طريقك، ولا يوازي ما تركه أثر جميلك، ولا ما يُقيّم به .. ما خلّفه صنيعك.

.. ثم أو (هذا) حسبي لك/

قال تعالى : ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾[إبراهيم : ٢٧] إن ثبات المسلم على القول الثابت في قبره من أعظم أنواع الأمن، ومن خُصّوا بالأمن في قبورهم الشهداء، كما قال ﷺ عندما سئل : ما بال المؤمنين يفتنون في قبروهم إلا الشهداء؟ فقال : { كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة} رواه النسائي.

---

(١) وانظر في مثال هامش (١) ص١٥٧ .

فهنيئاً أنك لبست تاجاً ما حلمنا بمثله .. ولا سعت بناهِممنا لنيله ..، ولا تقصّت خيالاتنا سبله، ولا قصدت أمانينا مرمى أُكله ..

وإن كان ما قيل :

لِلــهِ كــم غــادٍ حبيــب ورائــحٍ نشــيّعه للقــبر، والــدمع يســكب[1]

يصدق بكل حبيب .. يغيب !

عدى رواحك لمثواك ! فإنّا إليه نزفّك .. ، وبدموع الفرح نشيّعك ..، وبالتباريك – لذا المآل – نُحنّطك.

سقى جدثاً وارى ابن (محمد) وابلٌ مــن العفــو رجّــاس العشــيات صــيّبُ[2]

وانزلــه الغفــران والفــوز والرضــا يُطــاف عليــه بــالرحيق.. ويَشــرب

هذا مما لك من المنى بقلوبٍ حلمت .. فـ / حملت .. وحبلت ببعض ذا الدعاء لتبثه إثر .. غدوّك .. ورواح شخصك.. و ..

أما لذويك .. فأخص والديك – بعد التذكير .. بـ :

لكــل اجتمــاعٍ مــن خلــيلين فرقــةٌ ولــو بيــنهم قــد طــاب عــيشٌ ومشــربُ-

فأسأل .. الله أن يكون .. – وعمله .. وجهاده – خالصاً منه..، ومنكم لوجهه الكريم/ أن شرّفكما بذلك ، .. مع بلوغكما بُشرى: أنّ (الشهيد) شافع لأربعين من آله، - أو كما ورد-

.. ثم أجدلّ بالكلمات المليئة بفيض التهنئات، والمسبوغة بجملٍ مكللة بالعرعر.. ليبوح بها (قلبٌ) مفعم بالرضا والتسليم بالقضاء..، ومع كل المنى: بأن يكون " الهدّية"..

---

(١) (٢) محمد بن عثيمين - و (الجدث) أي : القبر-

كنز بـ (الأفغان)[١] عند الله نطلبه خير الوداع.. من خير المؤدّينا[٢]

أن / بورك لكما التاج الذي به توّجكما ، والوشاح الذي قلّدكما ، ورواق العزّ الذي به طوّقكما..

فهو (بحق) من أصحاب وأهل الزعامة الأبدية والفخامات السرمدية: الشهداء.

ولكما – أيها الأعزاء – في أشقائه بإذن الله تعالى- العوض .. ونعم السند.. وخير خلف .. ، ثم آسرد لكم .. لأخفف عنكم.. وأواسيكم- أو أشاطركم- :

من بعض عُرف هذه "الدنيا " .. الدنيئة .. القصيرة ، و(الغرورة).

إن الحيـــاة مـــآتم تُفضـــي إلى عـــرسٍ، وأفـــراح... إلى حســـراتِ[٣]

لكنهـــا بخريفهـــا وشـــتائها وبصـــيفها.. حِكـــمٌ ودرس عظـــاتِ

- ولذلك –

.. فـاختر لسـير العمـر أيّـةُ غايـةٍ إن " العقيـــدة" غايـــة.. الغايـــات

.. ثم لجدة الفقيد – مقام: والدتنا[٤] – وذويه .. الصبر والسلوان .. عساها أخر الأحزان .. فـ ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾ (البقرة ١٥٦).

---

(١) .. قال جابر قميحة من قصيدةٍ عنوانها " ابطال الجهاد الأفغاني" وهي من ديوان له عنوانه (لجهاد الأفغان أغنّي) ص٣٣ ، متحدثا عن ضروب البطولات التي أبداها هذا الشعب الضعيف في منازلة عدو قوي – الشيوعيين الروس الغزاة - .. مدجج بأفتك الأسلحة:

يـا أمـة الأفغـان. نصـرك- وافخـري- مـا كـان.. لـولا قـوّة الإيمـان

تلـك الـتي جعلـت شـيوخا قـاربوا مئـة مـن السـنوات كالشـبان

..ويرطبـــون شـــفاههم وقلـــوبهم بـ (الفتح) و(الأنفال) و (الرحمن)

القـــوة العظمـــى بشـــعب مـــؤمن والنصـــر بالإيمـــان لا الطـــيران

(٢) بتصرف : أحمد شوقي.

(٣) بتصرف: عبدالله البردّوني.

(٤) (مدينـة) – رحمهـا الله - .. وانظـر مـادةً عنهـا ، في ص٢٦١ فمـا بعـدها ، وللعلـم: فقـد كُتبـت هـذه الرسالة إبّان حياتها.

(الفرس) الجموح .. بحاجة إلى (فارسٍ) طموح!

أمّا الفقيد، ومثله – ولا نزكّي على الله أحد- فأعود .. لأخاطب ذلك " الحي " عند ربه .. بإذنه :

لـولا جنـوح الطـامحين.. وسـعيهم ... مـا كـان ذكـر المجـد غـير خيـال

أن: لا عليك ..، وقد حبّرت بدمائك الزكية أجمل سيرة..، وأبقيت أعبق ذكرى..، وسطرت أنصع بيان،

ولا على جهادك وغدوّك – إثره -.. ورواحك، وأيام أخذت من شبابك.. لتلقى به .. أعظم أمانيك: " الشهادة"، حتى أخذته كلّه!

قال خباب بن الأرت : (هاجرنا مع رسول الله نبتغي ما عند الله، فمنا من مضى ولم يأكل من أجر دنياه شيئاً) – ثم ضرب مثال بـ/ مصعب بن عمير[1] - .. بعيد :

فتـــى الإســـلام يـــا أمـــلاً ... بـــــه الأيـــــام تبتســـــم

ويـــــا حلمـــــاً تمنتـــــه ... بـــــلاداً ضـــــحكها ألم ..-

بـ : .. أن تُفيق سادرين بالحياة ورجوها، وضائعين بشهوات المنى ونوالها..، ولاهين خلف أحلامٍ بوكرها..، ولاهثين إثرى نشوى سرابها، .. ممتطين جوى يُنشد بلهوها..، حين: قدّمت أغلى ما تملك: (نفسك) لهدفٍ سامٍ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ (آل عمران ١٦٩) .. ومقصدٍ نبيل { ذروة سنام الإسلام}[2] - كما في الحديث -

---

(١) انظر ما تقدم – هامش (٤) ص ٢٧-

(٢) لقوله ﷺ { رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد} أخرجه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه بإسناد صحيح.

فلك الله! أيها الباعث فينا – ولو خيال - .. هذه المنى " عزيزة المنالِ" .. بل والبعيدة نيلها لمن جرى.. إثر سراب[1] هذه "الفانية " – كما قال لبيد:

غـرورٌ يُمنّينـا الحيـاة.. ورجوهـا وجنـات الأمـاني فيهـا بلاقـع[2]

فـ لربك نفسك الزكية..، وثراك الطاهر ، وجدثك النقي، وجسدك المدثّر.. بدمائه لونه لون الدم، وريحها.. (ريح) المسك: ﴿ فَمَنْ شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ ﴾ (النبا ٣٩) - صدق الحق (سبحانه وتعالى)- ، وصلى الله وسلّم على قدوة المجاهدين .

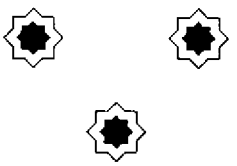

(١) والسَّراب : ما يُرى في نصف النهار، من اشتداد الحر كالماء في المفاوز- وهي جمع مفازة أي الصحراء بالأرض يلصق - المعجم الوجيز مادة (سرب) ص ٣٠٧- كما قال تعالى : ﴿كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً ﴾(النور ٣٩) .

.. قال - .. مُعبراً عن غالبنا (اليوم)- سعد الغامدي :

كم غرقتْ في الوهم نفس لأنها مضت طمعاً خلف السراب.. فضلّها

أجل، وقد قيل في السراب : (أخلف من رأه، وغدر من منّاه)..

(٢) البلقع: المكان الخالي من الأحياء والحياة.

و.. هوى (نجمٌ) من سماء التويجري(*)

هذه الدنيا .. لا تُبقي على أحد!

آجل، وإلا لبقي خير من وطأ الثرى (محمد) ﷺ .

بـــدءاً :

وإن كان ما تقدّم شطر (بيت)، لكنه حمل في طيّه الحقيقة الأبدية مما هو مفروغٌ منه، و.قد سلّم بها الجميع.

- لابــدّ مــن فقــد ومــن فاقــد هيهــات مــا في الــدنيا مــن خالــد-

لكنّ الجانب الخفي : هل هذا هو حال وقع المَصَاب على الفاقد، عملاً بالحديث: { إن الصبر عنه المصيبة الأولى}، أو .. وخلاف هذا، ما لا يرضاه المسلم لنفسه!

فـ :

في مطلع شهر الله (المحرَّم) -: الجمعة قبل الماضية - وآرت أيادينا ذا الأيادي الجميلة الصنائع، والروح التي حملت في جنباتها: أخلاقاً ولطفاً وروافاً.. طال البعيد قبل القريب منها..، وقلب (وسع) آله وذويه .. وأخلاء، لا عجب أن يُمطروا

(*) نشرت المادة في صحيفة الجزيرة عدد ١٢٥٧٢ وتاريخ ١٤٢٨/٢/١١هـ تحت عنوان: (ذو اليد الجميلة.. إلى رحمة الله).

سفحه من ماء عيونهم عليه.. آن موارات جدثه الطاهر، أنه الأخ والحبيب والخليص: **(صالح بن عبدالله بن راشد التويجري)** ١٣٦٥ - ١٤٢٨هـ

- رحمه الله رحمة واسعة -.

.. ولأن كان للمرء من اسمه نصيب- كما تقدم فيما أُثر عن ابن عباس ﷺ-، فإني (ومن خلال محاكاتي له) أُدلي:

أن له من أسمه أوفر (النصيب) [(١)]، إذ كان "صالحاً" في نفسه وتعامله، وفي عشرة أهوت القلوب إلى محجره.. ومتجره الرابح بالأصحاب قبل الأحباب، فما يقول (فاقد) بفقيد مثله؟ أو ما زُرع له في أفئدة مُحبّيه مما لا أجده مفيد في استجراره، إلا بما أحسب - بإذن الله- أن يكون بمقام عُمر جديداً يستأنف الحضور.. بعد مفارقة الروح الجسد، وقد قيل: (الثناء الحسن، أحد البقائين).

ثم.. أو لتسمحوا لي بهذا التفلسف[(٢)]: أو ما سوف أردْهُ مورداً آخر - في مهنية هذا (الفقد) -، ما هو إلا للتقريب: ماذا يعني لك .. غياب الغالي عليك؟

.. إن الإنسان - هذا الذي سُمّي بهذا لأنه: (ينوس) على الأرض: إناساً مع غيره من الخلق وأُنساً[(٣)] بهم، ف (جنّه بلا ناس لا تُداس) -:

---

(١) كما أحسب بهذا (فقيدنا) الذي كان كذلك في تعامل صَحِبه سماحة .. بل وعشرة لأظنها تغيب، وإن غاب بجسده عن محيّا وألق أحبابه، إذ.. أبقى أثره في وجدانهم ما يكفي، وإن توارى شخصه عن أنظارهم -.. فكثيرون حالهم (بعد فراقهم) لدى أحبابهم، أو مقامهم.. كذلك-

(٢) قياساً، أو كما عللت بنفس هذا النمط، عن البكاء - ص٩٠-

(٣) قال تعالى - عن موسى عليه السلام - : ﴿آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾ [القصص٢٩] فكل ما يؤنس الإنسان فطرياً: يَقرب إليه.

يؤآلف فيها أو يألفها مع من لهم منذو بزغة ومداركه بالحياة في التعرّف على آرجاء ما حواليه فيها، فيكسب مُؤلفتهم بها.. حتى لتجد قول الشاعر :

وإن إفتقادهم وآحد بعد وآحد دليل على أن لا يدوم خليل

فيحرفه إلى (أنه/ دليلٌ على زوال جمالياتها التي ضمّته بهم..)، أو كذا عبّر أبو العتاهية :

إذا مضى القرن الذي أنت فيه وخُلّفت في قرن فأنت غريبُ!

لا غريب اليد والوجه واللسان.. في المكان فقط - كما هو الحال عند المغترب؟-، بل الزمان الذي ولى منه: **مَن كُنت تألفهُ بالموطن الحسن..**

والخشن - أيضاً- الذي آتى بجيل وبعد رحيل عن ألقك (المؤانس بها) [1]، وذاكم الكمّ الذي قضيت معهم (عمر جميل رحل) فأقضى بعدهم.. وبعد غروبهم منك المنام والمقام .. وحتى الأحلام!- .. مع التسليم بـ :

فإن تكن الأيام فرقن بيننا فكل امرىء يوماً إلى صائرُ-

هذه (ربما) أكثرُ ما يضيق النفسُ - داخلياً- .. من هذا الفراق!

لأنة (فراق) توجّس[2].. أو مؤذن لك (أنت) بالرحيل.. وإن لم تُقرّ به ذاتك، أو تعترف به في خباياك، فما المرء إلا كما قال الحسن البصري (أيام)، - .. مما

---

(١) كما في حديثٍ وقد تقدم : { إن يعش هذا - مُشيراً لأصغرهم- لا يدركه الهرم، حتى تقوم عليكم قيامتكم}.

(٢) وهذا .. لعله هو (السبب الخفي) وراء الحزن!- وكما تقدم بسط هذا ص ٤٧-

يعني - أن كل يوم ينقضي منها ينقضي بعضك ، فكيف إذا ما انقضى منها[١] من كان يملاءها عليك.. لا بجسده فقط - وذاك أن غيابه الحسي، قد لا تُلقيه بالاً، طالما أنك تتحسس أنفاسه وتلمس وجوده، ولو كان بعيداً، مصداقاً لقول الشاعر :

أبلغ أخاً في ثنايا القلب منزلهُ ... أني وإن كنت لا ألقاه.. القاهُ

وأن طرفي لموصولٌ برؤيته ... وإن تباعد عن سُكناي سُكناهُ-[٢]

بل بأنفاسه واحساسه.. وغدوّه، ورواحه.. الخ.

.. فـ سوى هذه (لعمري) هي الحال التي لا تُدركها .. إلا بعد الرحيل لذلك الغالي، فتجد مكانه (الكان): قد خوى إثره.. فتهوي منك المقاومة - مهما امتلكت منها أو أُوتيت من عزائمها، -، أجل.. فلا تجدك أمام هذا (البين) إلا والدموع أجلى مُعبّرٌ حينها .. لـ/ كأنه أُذنٌ في البكاء عليها - ، بمعنى: أنه قد قَربُ (شاهد) رحيلك أنت!.

كما ولعل أقرب مقرّب لهذه - وإن ظنّها البعض فلسفة - هو : في فرق ما تُحسّه حين تُفارق صغير العمر - .. مما لم يلحق أن يأخذ منك ما يأخذ ، .. ويبني فيك (له) صرح الودّ والعشرة، وفراق أو :

بينُ ذاك الـ الكبير .. لا عمراً فقط ، بل ومقاماً وقد أثبت من خلال تواجده في أجزاء حياتك.. ما لا يغيب مقامه عن خيالك - كما تقدم ص٤٠-

.. وبعدُ : فما هذه.. إلا (جزئية) أفرزها القلب عمّن يستحق، والمليء بأمثال (أبي طارقٍ..) الغالي - رحمه الله وأسكنه فسيح جنّاته - ، وإن كان أقل ذلك:

---

(١) وهنا نفهم الحكمة (إن الموت تخطّاكم إلى غيركم، وسوف يتخطّى غيركم إليكم).

(٢) .. ومعنى البيتين ، ما قاله الإمام أحمد (لنا إخوة لا نراهم إلا لما، هم أقرب إلينا ممن همّ بين أظهرنا).

ويـا خجلـتي إذا قـالوا محـب ولم أنفعـك في خطـب أتاكـا

أما البكاء الحقيقي، أو الحزن الأعمق جرّاً هذا: فهو على أحبابه أولى، لأنهم (هم) الأكثر قلقاً وفرقةً.. ولوعة، كما يصف حالهم (د يك الجن) بـ :

لـو كـان يـديري الميـت مـاذا بعـده بـالحي منـه بكـى عليـه في قـبره

.. ولأُعيد - ولا أُماري- : أن بغياب .. هذا الـ (صالح) :

ولقد أحسن الشاعر عبد الغفار الأخرس، حيث يقول : - بمثله-:

ولفقـده في كـل قلـب لوعـة ولـذكره في حمـده ترديـد

فـزوال ذاك الطـود بعـد ثباتـه ينبيـك أن الراسـيات تبيـد

قد : هوى نجم من سماء (التواجر)، .. بل قل : " كوكب ".

ثم.. إن مما لا يُنسى لأبي طارق: تلك الإبتسامة التي زُرعت في مراء أحبابه، وروحه ولطفه.. بل إن له طريقة لا تغيب في استقبال أو لقاء أحبابه، إذ يفتح ذراعيه، وكأن لسان حاله يقول :

" هذا قلبي وقد شرع لك أبوبه، فأدخله على الرحب والسعد ".

الا .. فقل لنا يالغالي : بأي أسفار (النجاح) تعلّمت امتلاك قلوب المحيطين بك قبل عقولهم؟ وما (الأنزيم المعنوي) الذي تنفثه فيمن حولك؟ فيتحول لديهم إلى وقود ملهب .. مُوجّهٌ تلقاء شطرك؟ .

.. هذا (بعضُ) عزائي فيه أرفعه-.. بعد أن أرفع أكفّ الضراعة للمولى أن يرحمه-: والعزاء الأول والأجمل لوالده - مقام الوالد- الكريم النفس والأخلاق والخُلق / الشيخ : " عبدالله بن راشد التويجري" وأهمي .. أو أهمس :

وإذا الأسـى لم يُجـدِ شـيئاً فـالعزى بـالحرِّ أحـرى والتأسـي أحـزَمُ

سـلّم أمـورك للمهـيمن كلّهـا فـالله يفعـل مـا يشـاء ويحكـمُ

سبحانه ، لإراد لحكمه، ولا اعتراض على مشيئته أو مُعقّبٌ عليها.

ثم لمقام العم/ الشيخ " عبد المحسن بن راشد التويجري[1]" وأخوان الفقيد الذين أخص منهم (أبو نايف)، وأخواته اللآتي أخصّ منهن مقام الوالده الغالية (أم أخي : بندر).

ثم أُثنّي بالعزاء، إلى إبنه (المهندس: طارق) ووالدته وذوو الفقيد.

وأبشّرهم : لأن ذهب بجسده، فقد بقي في (سجل الخالدين) لدى أحبابه الذين - أو/ أُكرر-: لن ينسوا تلك القسمات الباقيات.. والتي أجزم بإذن الله : أنها لن تغيب عن ذاكرتهم، فيكيفه - منها - أنه:

كان واصلاً باراً رحيماً لطيفاً - .. سحاً غدقاً-، بل أحسبه ممن تندّ عن العدّ مناقبه.

واعتذر من الله لما حاشا هذا.. من تجاوز، كما واعتذر عن (التأخر) في هذا التأبين، إذ كان وقع (المصاب) أصعب من تهيئة المداد.. ليسطّر ، بخاصة وقد امتلك (شخصهُ) منّي خالص الوداد:

حسب الخليلين أن الأرض بينهما هذا عليها وهذا تحتها باقِ

- .. وصلى الله وسلم على قدوة الصابرين -

(١) .. الذي انتقل إلى جوار ربه- و.. غاب عن دُنيانا- مساء يوم عيد الفطر سنة ١٤٢٩هـ.
رحمه الله رحمة واسعة، والذي أخصّ ابنه، وصديقي الغالي محمد – أبو ياسر-.. بعزاء خاص على رحيله.

.. وغاب صاحب الابتسامة التي لا تُنسى(*)

هذه (كليمات) .. لا أحسبها كلمات، فضلاً عن أن تكون مقالة . في فقيدنا الشيخ (عبد العزيز بن عبد الرحمن المسند) يرحمه الله، والذي ولد في مدينة (بريدة) عام ١٣٥٦هـ، و انتقل إلى رحمة الله .. وفجأة .. وبهدوء.. في صباح التاسع عشر من رمضان- يوم أمس الأول[٢] إثر نوبة قلبية عن عمر يناهز (٧٥) عاماً..

حق، بل (صدق) وعدل .. أن :

(الموت) حق إنما دمع النوى من طبعنا

والدمعُ كناية: عن البكاء، وهذا البكاء[٣] هو (تعبير عن مكانة المفقود بالقلوب)[٤] لا جزعاً - لا قدر الله - ..

ثم :

الكل يرجع للثرى وتدوم عزّة ربّنا

كما قالت حديثاً د. عزّة رشاد قطوره - وهذا (بالمناسبة) معنى دندن حوله الشعراء كثيراً في القديم والحديث - .

أجل .. لا يدوم سوى الدائم وحده لا شريك له، وهذا العزاء الحقيقي : أننا كلنا على هذا المنوال سائرون .

(*) .. وتحت نفس هذا العنوان : نشرت المادة.. في صحيفة (الجزيرة) عدد ١٢٧٨٩ .

(٢) .. تحديداً في ٢٠/رمضان/ ١٤٢٨هـ فإنه يحزنك (أكثر) عندما ينبو إلى مسامعك رحيل غالٍ مثله، .. وكيف يترك أثر رحيله في خدنه!!

(٣) .. فليس هذا الحزن- وقد تقدم الكثير (في ثنايا الجزء الأول) .. عما ينبيء عن هذا المقصد-: الذي يختلج النفس اعتراضاً على أمر الله وقضاءه، فحاشا لله، إنما نحن بشر لا نملك النفع والضر لأنفسنا حتى نملكه لغيرنا، ولكننا نملك الأسى والألم في وفاة قريب أو صديق أو حبيب، فالعين تدمع والقلب يعتصره الألم، لأن الإنسان خُلق هلوعاً فهو ضعيف جداً مهما اعتلى وارتقى في سلم العلم والمجد، حيث يبقى بسيطاً جداً أمام قضاء الله وأقداره، أجل فنحن لا نملك إلا الحزن فقط ولا غيره من شيء، ومع هذا .. فالدموع لا تُعيد بـ(غائب)، ولا تردّ فقيداً ولا تصلح ما فسد.

(٤) كما في إيضاح الحديث الذي تقدم .. ص ١٠١ .

- أخلاي.. لو غير الحِمام أصابكم عتبتُ، ولكن مَا على الموت معتب-

لكن .. لمقام الوالد (فقيدنا) عبد العزيز المسند رحمه الله رحمة واسعة- الحائز على (ليسانس في الشريعة)- بقدر عطائه وما ترك من أثر ، إذ قام على عاتق جيله جزء كبير من خطا تقدم هذا الوطن الغالي ، و.. جلّ نتاج هذا (الموجود)[1] اليوم.

فهو من ثلّة ذاك الرعيل الذي حمل الجساما ، ممن يعنيهم - كما أحسب - قول المتنبي **(وتصغر في عين العظيم العظائم)** .

أجل ، فالرجال قوالب الأحوال، إذا صغروا صغرت، وإذا كبروا كبرت. يقول نافع : (إذا كان الإنسان "المثل" في نظره بطلا شجاعا ، وفارسا عظيما ، فهو رجل مجد أيضا ، يصنع مجده بيده لا يرثه عن آبائه وأجداده، بل هو وليد ساعته ، وابن وقته).

و.. جميل قول أحد الفلاسفة :

(هناك طريقان لنشر النور : أن تكون أنت الشمعة ، أو المرآة التي تعكس هذا النور)، ويدلّ عليه بيت جميل لأحمد شوقي :

المـــرء بعـــد المـــوت أحدوثـــه يفنـــــى .. وتبقـــــى آثـــــاره

ونعود للإثراء عن فقيدنا – يرحمه الله- .. ومع تشفيع ما صدَّر للوطن، أو مِن أجلها أجلاء في مقدمتهم هؤلاء الفضلاء : (علي الطنطاوي) و (مناع القطان) يرحمهما الله، والأديب الكبير (عبد القدوس أبو صالح) حفظه الله.. ونظرائهم.

وأيضاً : فقد خرّج جيل (كامل) - أحسبني منهم - حين: إتكاء كثيراً على عطائهم وتوجيههم، وتقديم غزير ما استطاعوا ليرفدوا الوطن حتى بلغ - بفضل الله - ما نشاهده اليوم، .. وهذه - لعلها - صورة (سريعة) عن من غيّب في الثرى ..

و- مع هذا- فـ الشيخ (المسند) يرحمه الله إضافة لأثر ما ترك ، فقد كان أيضاً (صورة) جلية عن "سماحة" الإسلام ومراعاته لشتى ظروف ما تبلغ العبد- أو ما يقع فيه-.. قالت العرب (خذهم بالرقى، إن المهاري يهيجها على السير الحداء) .

---

(١) .. وكما تقدم في ثنائي على المربي: (عثمان الصالح) يرحمه الله – مطلع ص ٢٣٣-

.. وهـذا الصـنيع أخـذاً .. مـن القـدوة ﷺ : .. حـين أتـاه رجـل – صـفوان - .. فيخاطبه بغلاضة : (أعطني حقي يا محمد ، والله إنكم لمطل يا بني عبد المطلب)، فينظر إليه عمر ﷺ ويقول : (والله لو ما أحاذر من لومي لضربت بسيفي هذا رأسك)، فيرتعد ويخاف، إذ الكلام من عمر وما أدراك ما عمر!

فينظر النبي ﷺ إلى عمر ويبتسم ويقول : { أنا وهو أحوج إلى غير هذا منك أنت، أمرني بحسن الأداء وتأمره بحسن الطلب، اذهب يا عمر وأعطه حقه وزده عشرين صاعاً جزاء ما روعته}[1].

وهذا الصنيع بدى ظاهراً جلياً.. عبر فتاويه في برنامجه الشهير (منكم وإليكم)[2]، ولعل هذا إشتقاقاً من ما ذكرت عائشة رضي الله عنها ، أن رسول الله ﷺ (ما خُيّر بين أمرين إلا اختار ايسرهما ما لم يكن إثماً..) ، وذكر عن التابعي الجليل سفيان الثوريّ – رحمه الله - وبعض أئمة السلف بسنده.. ما معناه : (أنه إذا استشكل عليك في الشريعة أمران فخذ بأيسرهما.. فهو الأقرب إلى الله). وكأنه يروم تأصيل (قضية التيسير)..

---

(١) فينطلق عمر ويعطيه حقه ويزيده عشرين صاعاً، فيقول صفوان : مه يا عمر ما هذه الزيادة؟، فيقول عمر : أمرني رسول الله ﷺ أن أزيدك عشرين صاعاً جزاء ما روعتك، فيقول صفوان : " هل تعرفني يا عمر .. أنا صفوان حبر اليهود ولم يكن شيء من علامات النبوة إلا عرفته فيه إلا أنه يسبق حلمه غضبه ولا تزيده شدة الغضب عليه إلا حلماً، فاشهدك يا عمر أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله، وأشهدك يا عمر أن شطر مالي صدقة في سبيل الله"!

.. أرأيت – أخي في الله – كيف تكون الدعوة بالأخلاق؟ إنها والله أخلاق الأنبياء، وقد قال فيهم (حمداً) مولاهم: ﴿ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [فاطر : ٣٢]

(٢) .. بل / أصدر كتاباً بهذا العنوان (منكم وإليكم، مئة سؤال وسؤال).

أيضاً حذى بهذه السلاسة التي اقتفاها فقيدنا.. ما سمّر أمامه حتى أولئك (المقسطين على أنفسهم) حال وقت عرضه بالتلفاز[١].. حتى أني لأذكر ونحن أغرار.. نتابعه، لبساطة[٢] الشيخ - يرحمه الله - وحُسن تناوله، وسلاسة آتيةً من تلقائية ليس فيها تكلّفٍ بادية من قِبل .. عرضه .

حتى تقول (فاطمة العتيبي) : " كان أول شيخ يتحدث للعائلة في برنامج شهير (منكم وإليكم) بأسلوب لطيف وبسيط، وكان أول رجل يطلب من الرجال بتودد ورحمة أن يُعاملوا النساء وأن يرفقوا[٣] بهنّ وأن يقدّروا احتياجاتهن.

إلى أن تقول – وقد صدقت-: لمثل هؤلاء نبكي.. ولمثل هؤلاء نحزن.. إننا نفتقد برحيلهم (نكهة) حياتنا التي خبرناها بهم وعرفناها" :

.. وتعليقاً على لمسها للقلب، بقولها: " نكهة حياتنا"، أفيضُ بـ:

إن الحياة فعلياً، أو جمالها يقوم – وكما عللت (ص٢٨٧)- على ثلاث أركان : المكان.. ،القطّان، والزمان..، فـ: الأولى (الوطن) أكدها المتنبي بقوله: " **بما التعلل لا أهل ولا وطن**"! – أي كأنه يوقف تعلل المرء بأحداهما-

والثانية ، قول محمد بن إبراهيم: في تغيّر الجيل-: **إذا الرجال ولدت أولادها** .. الخ – كما تقدم ص ٤٧-.

والثالثة – تقدم عنها – في قول أبو العتاهية:

---

(١) أحد اشتقاقات التعريب (له)، وإن كان علاّمتنا اللغوي (علي الطنطاوي) رحمه الله قد أطلق عليه تعريباً: الرأيَ- إلا أنها لم تلق رواجاً.. إذ قلّما استخُدمت.

(٢) أو كما يُعبّر (د. عبد الرحمن العشماوي): إنها لغة البرنامج القريبة من المفردات المتداولة داخل الأسرة السعودية، وإنه لأسلوب الشيخ المتواضع الذي يحرص على مصالح الناس، ويتلمس احتياج الأسرة، ويقترب من المشكلات التي تُطرح عليه فيتجاوب معها بتلقائية مقصودة وكأنه جالس مع الناس في مجلسهم يتجاذب معهم أطراف الأحاديث... الخ .

(٣) وكأنها ترمي .. لحديث: { رفقاً بالقوارير..}

إذا مضى القرن الذي أنت فيه وخُلّفت في قرن فأنت غريب

وأعود لمنوالي.. فإن :

.. هذه (السمة) مع ما له من مقام شخصي لديّ، إذ كان أحد أحباب أبي، ومن ثُلّة كان الوالد يرحمه الله يستأثره بود (خاص) و خالص من شوائب الدنيا .. إذ يفرح به، ويحفل بلقائه، ويأنس بمطارحاته.. فكرياً (اجتماعياً) ، أو علمياً (شرعيا) ..

ولا أقول بهذا شافعاً له بمقالي هذا، لأنه بالأصل (أهل) لأضعفا هذا..

كما وللفقيد مقام لدى ولي الأمر، إذا أُسند إليه - وهو (المسند) أي: إسمٌ على مسمّىً- عدة مهام كان آخرها (رئاسة تعليم البنات) [1] ، ولا يُنسى للبارّة كريمته (د. غادة) حفظها الله جهدها في إبراز تلك المهام: أو قل غالب ما أثريت به عنه يرحمه الله .. بكتابها الموجز بعنوان : (المسند: علم وعمل) [2] ، جعله الله في ميزانها، وأبلغها درجة ما تصبوا من البر، وبارك لها في علمها وعمرها.

هذا .. وقد تفرّغ في آخر حياته لخدمة الأقليات المسلمة والاهتمام بأوضاعهم، ناحلاً لنفسه تزكية الكريم سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللهِ﴾ [فصلت : ٣٣] فتنقل في قارات العالم الخمس، يبتغي بذلك وجه الله .. في/ نصرة دينه وإعلاء كلمته، وعاملاً على بناء صروح القوة المسلمة وتشييد قلاع الدين الخالد في ذات المؤمن القوي، والعزيمة التي يجب أن يمتطيها ، .. أجل فـ :

على قدر أهل العزم تأتي العزائمُ .

أمّا ما أُحب أن أختم به .. عنه، في صورٍ من تواضعه يلمسها حتى من لم يكن قريب منه.

---

(١) والذي يُحسب له أو .. / من أشهر قراراته التي تدلّل على وقوفه الدائم مع المرأة والأسرة، حين كان يرأس هذا (القطاع): نقل كل زوجة مع زوجها، - كما: وطلب من إدارات التعليم (حفظاً للمال العام): أن تُسدد النقص من ملاكها الموجود فيها..-

(٢) وقد خصّني (بأكثر من نسخة) منه - حين سلّمني شخصياً تلك النسخ .. -

وذاك في صورتين، الأولى .. وقد سبقني لإبدائها رئيس التحرير – .. في صحيفة (الجزيرة)-: الأستاذ "خالد المالك" حيث بثّ : (لعل من المناسب أن أنقل لكم ما كتبه بقلمه موجهاً إلي وهو بالنص : (إلى صاحب السعادة الأستاذ خالد المالك، أهدي هذا الكتاب تقديراً له واعترافاً بفضله) والغرض من هذا النقل الوصول إلى (تأكيد) ما كان عليه المرحوم من تواضع وتوقير للآخرين، وإلا فأنا أعلم أني لست صاحب فضل عليه، لكنها هكذا شيم الرجال الكبار) .

وأقول .. له : لا تعجب أبا بشار ، فهذا هي أخلاق الكبار ..

ألم يقل عمر ﷺ عن أبي بكر وبلال - رضي الله عنهما - :

(سيدنا أبو بكر أعتق سيدنا بلال) .. وقبل هذا.. ما جاء في الحديث: { وما تواضع أحد لِلهِ إلا رفعه} .

والأُخرى لشخصي، .. حين قدمت له كتابي (ديوان البيان) – في تذوق الشعر العربي قديمه والحديث – هاتفني بعد بضعة أشهر ليلبسني تاجاً لم يطق ثقله رأسي حتى الآن .. ربما – أو هكذا أحسبه - : تشجيعاً بقوله : (إنّ من يطلّع عليه يظن الظان أنك لا تخرج من المكتبة أبداً)، بل – على ما أذكر - : أنه أوصاني، أو أقترح عليّ تقديمه كرسالة " ماجستير"، دلّه لكل خيرٍ مولاه في محياه، وإلى ﴿ مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر : ٥٥] في أُخراه..

- إذا ما بات من تُرب فراشي ... وبتُّ مجاور الربّ الكريم

فهنّوني أصحابي وقولوا: ... لك البُشرى قدِمت إلى رحيم-

السمو.. (المكانة) لا المكان (*)

الحمد لِلهِ القائل: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥] - جعلنا الله منهم -، والصلاة والسلام على المخبر عن ربّه: {ما لعبدي المؤمن إذا قبضت صفية[٢] من أهل الدنيا ثم احتسبه جزاء إلا الجنة} البخاري- فهذه (والله) أعظم بُشرى -، وبعد.

قُبيل فجر الأحد الماضي[٣] فاضت روح عمّتي (نورة بنت محمد بن صالح المطلق) - رحمهما الله.- إلى بارئها، فسكب مدادي (بحقهما) هذه العبرات:

وداعاً .. أُمْ عبدالله[٤]:

ليت عين التي آب النهار بها ... فِدى عين التي غابت ولم تَؤُبِ

إيه ..، وانطوت صفحة من عهدٍ جميل آو/ **عمر جميل عبر**

.. وحقبة كانت تملأنا بها والدة وعمّة كـ (شجرة) مُتلألئة الأغصان .. من فضائل وخصال قلّما حاز أو جمع (بعصرنا) عِدادها.

ولا شك أن غيابها يشكل أُفول مرحلة (جدٌ) عزيزٌ على القلب إحتمالها، - كما أحسب.. أنّه عزيزٌ تكرارُ (مثلها)، ..﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم: ٢٠] -

---

(*) مادة نشرت بالجزيرة - تحت عنوان: (النور لـ "المكانة لا المكان) عدد ١٢٨٨٢، وتاريخ ١٤٢٨/١٢/٢٧هـ.

ثم .. فالفرق بينهما، أن الأولى لا يستحقها أو يبلغها إلا من جاهد وبذل في سبيل الوصول إليها، أما الأخرى فإن كل من رنا شيء.. لا يحتاج إلا إلى السير إليه ليصله.

.. والفرق الوارد في العنوان: كما قال تعالى عن أخوه يوسف: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ [يوسف: ٧٧] - أي: شرّ مكانة عند الله -

فلا تبتئس لهوانك على الناس مقابل أن تحظى بالمكانة العُليا عند الله، من حديث: {رُبَّ أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره}.

(٢) الصفي: هو الحبيب المصافي - كالأخ والابن والأب والأم .. الخ -

(٣) تحديداً: منتصف ليلة الأحد ٢٢/ ذي الحجة، ١٤٢٨هـ.

(٤) ..والذي لم يُتم عامة الثاني .. حتى اختاره الله - (جعلها الله فرطها- أي: سابقها- إلى الجنة، وشافعاً).

إذ كانت للجميع أمّ حنوناً رؤوفاً عطوفاً، تصل وتواصل وتتواصل ولصنائع الخير تتواصى وعليها تحضّ، .. بل تحرص لإتمامها.

كما .. كانت لطيفة المعشر، سمحة الرفقة.. وأليفةً، نادراً ما تجد نظيرها، فكيف نجد من يملاء فراغها!

إذ كانت - يرحمها الله - ذات أخلاق عالية وتعامل سامٍ.. لا تسمع منها عتاب على مقصّر ، ولا تشرّه على مُفرط .. ولا .. ولا - هذا.. إن لم تحمل عنه عناء العذر!-

.. بل ويسيرٌ جداً أن تكسب ودّها، فإني أذكر لأخي (محمد) حفظه الله .. إذا ما لمحها قادمة لأي (جمع) يفزّ قائلاً - وهو فاتحاً ذراعيه - : (لن يسبقني على تلقي أو استقبال عمّتي أحد)، فكانت لا تنسى له هذه اللطيفة أبداً.

كما وكانت (همزة) وصل للرحم، ولذي الحاجة، ومن حصرته الفاقة، .. فقد كانت (سريعة) التفاعل[1].

وهي.. البارة تواصلاً مع كل قريب، أكان له الحق عليها، أم كانت هي صاحبته - بخاصة .. في عزّ نشاطها وقُدرتها- ، .. ومن ليس بقدرتها عوّضته بالهاتف، فهي - وهي الأنثى ﴿مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ [الرحمن : ٧٢] - تقوم بكل هذا، فكيف لو تسنّى لها الحال في الإنطلاق - كالرجل- ، .. وما يمكنها أن تصنع!

---

(١) .. انظر بسط كثيرٌ من هذه الخصال.. في مادة (الأم الأمّة، والجدّة الجمّة) لسبطها المشرف التربوي: "وليد الحماد" حفظه الله – الجزيرة عدد ١٢٩٠٧، في يوم الأربعاء ١٤٢٩/١/٢٢هـ-، والتي أحسب أنه أجاد وأفاد - وتمّم – عن شخصيتها.

فهذه الجوهرة العظيمة، والدرّة النفيسة لم تمضي إلى سبيلها.. إلا وبعد أن علّمت في كل من حولها أثراً (جليلٌ) تأثيره - .. أو كأن الشاعر عناها بـ :

ما كان هلك (قيس) هلك وآحدٍ ولكنه بنيان قومٍ تهدّ ما

هكذا .. توارد الخاطري معانيٍ لصداها - إثر فقدها ، وبخاصة حين إلتفتُ .. فلم أجدها!

كما .. ولن أقول أن لها من إسمها نصيب، بل إني لأحسب أن لها منه كافة النصيب، إذ هي (نورٌ) و (نوّارتنا) وضياءٌ .. لنا، عرفها، سِواءً من القربى أو الصحبة أو الإلفة، فضلاً عن أنها كانت قُبلة القلوب، ومهوى الأفئدة.. إذا ما رآمت تلك الأجنّة مكاناً للحب والحنان والرأفة، فسبحان من جمع بها.. كل تلك المناقب!

-لعمرك ما الرزيّةُ فقد مال ولا شاة تموت ولا بعير[1]

ولكن الرزية فقد (شهم) يموت بموته بشرٌ كثيرُ-

وإني لا أحسبها (نموذجاً) قليل النظير- بقياسه على هذا الزمن العجيب الذي أصبح فقد كـ (مثلها) إطفاءً لـ كوّة نور كأثرها - ، ولا أقول بهذا مبالغة ولا تعمية عن نماذج موجودة! لكن أُثبتها "شهادةً" من باب الإجمال .. أو حال الاستعراض العام في شخوص هذا العصر.

فحديثه ﷺ : { الخير في وفي أُمّتي إلى يوم القيامة} يردع أيُّ تجاوز قد يصدر من قلمي في (هذا)، إزاء غالب المجتمع، لكن.. وإستناداً .. لما أتى في البيان الألهي: ﴿ ثلة مّنَ الأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مّنَ الآخِرِينَ ﴾[الواقعة ١٣ ، ١٤]. علّ هذا يجلّي عن مرمى مُرادي.

---

(١) كذا أثبت (ابن المقفّع) .. - رثاءً في أحد فُضلاء عصره -

لكن .. ولأن فقد الخيرين والفُضلاء، هو نُذيرٌ يجلب الخوف، إيماءةً من الحديث: { إن الله لا ينزع هذا العلم إنتزاعاً، ولكن يأخذه بموت أهله} دلالة على صواب ما رنوت، أو معنى تأوّهنا عليها كـ (حسرة) على غيابها ..، فـ :

(أن يذهب الصالحون والفُضلاء.. والطيبون) - الذين بهم.. ومعهم تطيب الحياة- ، فماذا يبقى! .. { تقوم القيامة على شرار الناس} رحمنا الله، . ووارانا التُراب قبل بلوغ ذلك.

أجل ، يا عمّتي ..

.. لا نودّعك لمكانةٍ خلت، أو فقط لجلال أثر بنا غائر .. لأننا نتذكرك كل آن - يا أغلى إنسان-

وإني .. لأذكر (مُناسبةً) أن أوّل من بذر لها هذا المقام فينا، والدي - رحمه الله - حين كان يُردد على مسامعنا أن : (برّها من برّي، ورضاها من رضاي)[1].

ثمّ.. أو بلا شك أن عبيراً كهذا قد يُقال (قياساً) من باب العاطفة، أو استحضاراً لعظمة الفقد، أو هول وقع الموت ،كما قال (محمد بن وهب) :

نُراع لذكر الموتِ ساعة ذكره ... وتعترض الدنيا فنلهو ونلعبُ

يقينٌ.. كان الشّك أغلب أمره ... عليه، وعرفانٌ إلى الجهل يُنسبُ

لكن ما هو بعيدٌ عن هذا التفسير، هو (صنائعها) - يرحمها الله – التي بنا علّمت.. مما نحسبها بموازينها بإذن الله ، .. مع إيمان راسخ، وطاعة: من فعلٍ للخير والتواصي به .. فكم أقدمت على الحث لهذا بالفعل قبل القول، .. كـ: دعم لمحتاج

---

(١) أو كلمة نحوها- وفي قوله هذا .. قد يعني تنازلاً عن بعض حقه لها إيثاراً، أو .. من (باب) التربية، وتعليما للبرّ-

خجل[1] عن الإقدام، أو فقير آثر الإستعفاف، أو ذي مترية كاسف البال - أن ينشر غرضه - ممن: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة : ٢٧٣].

أما هي.. فقد كانت/

تسأل بل تستقصي أيضاً، وتتحس لأولئك، وتجمع و.. عينها على حالهم (تدمع)، مما لا أحسبُ أن فعلها غرضه: لأذكره، إلا ليُسدّ رمق مرامه بقولٍ عناه الشاعر:

تشبّهوا.. إن لم تكونوا مثلهم ... إن التشبّه بالكرام فلاحُ

أي: إن لم نصنع مثلها، فعلى الأقل نتشبّه.. أو نحاول المُحاكاة لما نسجت (من خير).. رحمها الله و أبلغها مقام من وعد.. في قوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم : ٩٦]

فـ هذه لعمري هي (الصورة) التي تبقى.. أو قُل الـ: ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [القصص : ٦٠]. لأنها لوجهه تعالى[2]، كما نحسب- والله حسيبها-

وبعد ...

ما هذه - أيها القارىء- إلا لمحاتٌ.. عنها، كيف لا وهي تزلف نفسها إلى ذلك المقام: ﴿الصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ﴾ [النساء : ٣٤]- والقنوت: هو المداومة على العمل الصالح-، وأظنها بلغت.

أمّا إليها فأقول.. مما نظمه (المتنبي) - رثاء بأمِّ سيف الدولة، لأني أُرجّح أن الخلال (بينكما) متماثلة-:

صلاة الله خالقنا حنوطٌ ... على الوجه المكفَّن بالجمال

على المدفون قبل التُّرب صوناً ... وقبل اللحد في كرم الخلال

---

(١) .. وقد روى أن عليّ ﷺ إذا آتاه سائل يسأله، .. يقول له: (أكتب حاجتك على التراب، فإني لا أقبل أن أرى الذلّ في وجوه الرجال).

(٢) .. كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان : ٩]

و.. يا عمّتي :

أطـاب الـنفس أنّـكِ مـت موتـاً ... تمنتـــه البـــواقي والخـــوالي

وزُلـتِ .. ولم تـري يومـاً كريهـاً ... يُســـرّ الـــرُّوحُ فيـــه بـــالزوال

.. ثم أرسل بيتيه (الشهيرين) :

ولـو كـان النسـاء كمـن فقـدنا ... لفُضِّـلت النسـاءُ علـى الرجـال

ومـا التئنيـث لإسـم الشمس عيـبٌ ... ولا التـــذكير فخـــرٌ للـــهلال

لكن .. أو عطفاً على كل ما تقدم: (نحن) لماذا نقول كهذا.. أو نستعرض ذلك، هل هو من باب.. حديث: {إذكروا محاسن موتاكم} ؟، أو نقول به تعزيةً .. وألماً على فقدها؟، أو نقوله مما نرجوه لها من خير .. لأننا: { شهود الله في أرضه }؟، أبداً - وإن كانت أهلٌ لكل ذلك..

موعـد كـل ذي عمـل وسـعيٍ ... بمـا أسـدى.. غـداً " دار الثـواب"-

بل .. لكي لا يُقال عن فضائل ديننا (أنها) نهج ملائكيٍّ[1] صعبة التطبيق[2]، أو عزيزة المنال .. درجتها!؟ - انظر ختام ما تقدم ص١٦٧/ ١٦٨-

---

(١) .. وتفنيداً لعذر - أو مقوله - جمع من المُفرطين على أنفسهم .. أو فهمهم أيضاً، بمقولة : " أن القرآن .. أعظم من أن نطبّقه نحن البشر في حياتنا التي لم ترقى.. أو هي دون تعاليمه السامية"، ومن أصحاب هذه الحيل والأعذار التي يُضيّع بها حقّ إحلاله بحق ، أو هو (مخرجٌ) للتنصّل، فـ يتسللوا لواذاً (بهذا) .. العذر الباهت عن أن يُقيموا تشريعاته!

(٢) وإليك نماذج من السلف (ما بعد الصحابة رضي الله عنهم)- : " كان الأعمش قريباً من سبعين سنة لم تفته التكبيرة الأولى"، وقال القاضي تقي الدين سليمان (لم أصل الفريضة منفرداً إلا مرتين، وكأني لم أصلها قط) وفي ترجمة إبراهيم بن ميمون الصائغ أن ابن معين قال عنه (كان إذا رفع المطرقة فسمع النداء لم يردها) وفي ترجمة سعيد بن المسيب أنه (ما نودى للصلاة من ثلاثين عاماً إلا وهو في المسجد).

فما عرضها - واستعراضها - إلا لنُذكّر.. ولنقول بالمثال .. وقُدرة التطبيق، أن: ليس كثيراً على ذوي الهمم بلوغ ذلك.

فإن الإنسان.. متى ما جاهد نفسه .. في الرقيّ بها عن مشاهي الدنيا وشهوات نفسه الـ ﴿أَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف : ٥٣] فإنه وبيده .. ، وبعد إثبات أن ﴿وما تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [هود : ٨٨] أن يكون كذلك - كما وعلى ما جترحت يداه أن يكون نقيض ذلك .. فإن : ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة : ٢٨٦] -

أيضاً: لعل كهذا النموذج الذي يمرّ بكل زمان - والله أعلم - : لأمرين :

الأول : تذكير ، لأن سمت الإنسان النسيان ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ﴾ [طه : ١١٥] .

الثاني : أن منهج الله هو لـ (بشر) ويمكن تطبيقه .. حال النظر والتمحيص بـ: (كهذا) - النموذج -

وما سيرة أولئك الأفذاذ الذين تعلّموا وتلقّوا من رسولنا ﷺ - .. من الصحابة .. ثم تابعيهم بإحسان - إلا دليلٌ كافٍ ووافٍ على صواب هذا المرام، كما .. و بتَتْاثر هؤلاء (النماذج) [1] بكل عصرٍ .. ومصرٍ، هو إتمامٌ لذلكْ ..

فإن من علا بنفسه وبذاته فأبلغها مقام: ﴿الصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء : ٦٩] حين خرج من ذات نفسه (ومطامعها)، إلى ربوة أسمى .. كـ نفع البلاد والعباد، كما قال ﷺ : { أحب الناس إلى الله أنفعهم، وأحب

(١) كالفقهاء الأربعة ، و(ابن تيمية) و(العزّ بن عبد السلام) ومن هم بقياسهم.

الأعمال إلى الله عز وجل: سرور تُدخله على مسلم..} [١]، .. كائنٌ له بعد عون الله: حوز ذلك، بمعنى أن هذه الدرجة.. من (الخيرية) ليس من السهولة بمكان بلوغها! ولكن .. ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت : ٦٩]، أي:

(لنهدينّهم الطريق المبلّغ لذلك) ، فـ :

فمـــا نيـــل المطالـــب بـــالتمنّي ولكـــن تُؤخـــذ الـــدّنيا غلابـــا

.. في مغالبة النفس وشهواتها للوصول إلى ذلك [٢].

.. وتأكيداً أن هذا آتٍ حال مُجاهدة النفس وحثّها.. في السمو بها فوق أماني ذاتها لفعل الخير وبلوغ مهر: { إلا أن سلعة الله غالية}.

.. ثم .. أو كيف يستطيع أحدنا دفع هذا (الغالي)، هل بجاهة أو ماله أو سطوته؟ أبداً، إنما بالصعود بها عن أهوائها وشهواتها ورغباتها.. حتى - وبإذن الله -- يبلغ بها حديث: { هواه وِفقاً لما جاءت به} مع أخذ عين الإعتبار لقوله ﷺ مُخبراً.. عن ربه: { لا يزال المرء يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أُحبّه، فإذا أحببته كنت سمعة الذي يسمع به .. } الخ الحديث المشهور الذي رواه البخاري، هذا لعله أكبر سبب أن ينال به درجة كـ (هذه).

---

(١) صححه الألباني.

(٢) وإلا إمراءةً ناهزت الثمانين وتُقدم .. أو تتكلّف/ لإجراء عملية لعينيها معللة: (لا أحتمل أن لا أرى القرآن) – حين القراءة – فأي نفس وهمّة أبلغتها هذا السمو؟

ختاماً :

تولّت.. وأبقتْ بيننا طِيب ذكرها كباقي ضياء الشمس حين تغيبُ

كُلما أقراء قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ [مريم : ٥٠] (أي : الثناء الحسن)[١] كذا قال فيها بعض المفسّرين، فهذه المنقبة العظيمة التي أهّلها الله ثلّة من عبادة، أُدرك كم هي مكرمة عظيمة .. عَظم عند ربّه من بلغها.

.. وأحسب أن (فقيدتنا) بلغتها، وكفانا شهوداً على ذلك .. تلك القلوب[٢] التي بالفعل فقدتها مع تلكم الجموع والحشود التي وارتها إلى مثواها، مع أثر عظيم فيها علّمت، إذ لا أظن أنّ أحداً عرفها إلا وبكاها.

وأعظم من فقدنا من وجدنا بُعيد الفقد.. مفقود المثال

.. أجل يا عمّتي، فـ (هذا) ثمرٌ مما زرعتِ .. وجناً مما بذرتِ، أي (المكانة)[٣] التي لها سموتِ، لا المكان الذي يسكنه المرء! ... وهذا لعمري: هو الفرق.

لكن .. لا خوفاً - بإذن الله- عليها، للحديث القدسي.. مُخاطباً رب العزّة والجلال جنّته: { يُوشك عبادي يأتوك.. بعد أن أظنتهم الدنيا واتعبتهم} فالموت (هنا) راحة المؤمن.

---

(١) .. كما تقدم - ص ١٣-

(٢) للمحاسن التي بها تركتها ..

(٣) .. وما قصدت بهذا إلا ما آلفت إليها (القرآن الكريم).. حين ضرب مثالين، في اللذين آمنوا ، فقد خصّ الصالحات كل مثال بآية تكريماً لهن ولـ (مقامهن)، وحين ضرب مثال للذين كفروا بمثالين، فجمعهن بآية واحدة.. إقلالاً من منزلتهن.

.. كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [التحريم : ١١].. الخ السورة.

و.. أرفع عزائي الخاص .. لكريمتيكِ[1] الأخت من الرضاعة: (أم وليد الحماد) و (أم محمد ، أبناء أخي صالح المطلق) وأبنائهم.. ثم لقلوبنا وأحبابك - وهم كُثر - .. يا أُمي، .. فما هذه الأسطر إلا نزرٌ من عبير ابنكِ. ولن أقول ابن أخيكِ، فأنتِ .. أنتِ الـ (أُمّ) .

أسأل الله أن يُسكنكِ .. ويبلّغكِ: ﴿جَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة : ٢١] وصلى الله على نبينا محمد.

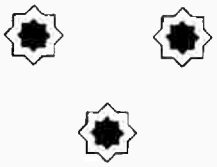

(١) أنجبت العمة ابنتان بينهما ولدٌ أسمته (عبدالله) مات غلاماً (شفع الله به وجعله فرطاً لوالديه) .. فضلّت (تُكنّى) به.

وقد بوّب البخاري - في الأدب المفرد - باب/ كنية النساء: عن عائشة رضي الله عنها قالت : يا نبي الله ألا تكنيني؟ فقال ﷺ : { اكتني بابنك}- يعني عبدالله بن الزبير، ابن أختها أسماء رضي الله عنهم-

إلى جنة الخلد (أبا عجلان)(*)

بـــداءً : كـ (الطيف) .. زار (الجفن) بالحلم!

أو هكذا .. (عبدالله) – رحمه الله-، إذ زارنا زيارة بسيطة (قليلة) في عمر الأيام، أو هي : معرفة لم تتعدى بضع سنوات اختصر بها الرجل – رحمه الله – عمر بأكمله .. وهذه أبا عجلان إحدى مناقب الإيجاز، وأعكس المثل الذي يقول: (إن السنين في عُمْر الشعوب قليلة)، أن "نزراً" من أوقات الرجال جليلة.

.. وآخذ أو أبني على إيجازٍ للأديب "د. راشد المبارك" عن العلاقة (تحتاج إلى عمر حتى يستطيع أن يتعرف إنسان على آخر) ، والأخرى : وهي "الكاشفة": (فبمجرد أن يلتقي إنسان بآخر من ذلك النموذج الذي لديه صفات.. ما تجعلك تحس وكأنك تعرفه من القِدم، أي : حينما ترتاح له أو بمجرّد رؤيتك له)- من قوله تعالى: ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم ﴾ [الفتح : ٢٩] -

توطئـــة :

عندما يمر بي موقف كهذا .. ، أذكر هذا (البيت) لأحمد شوقي :

أيـــن منّـــي (قلـــمُ) كنـــت إذا سمتـــه أن يرثـــي الشـمس رثاهـا

لكنه خانني في يوم كهذا! أو أقول:

(*) تحت نفس (العنوان) نُشرت المادة في/ صحيفة الجزيرة عدد ١٢٩٨٧، وتاريخ ١٤٢٩/٤/١٣هـ

لم يسعفني - بدل من خانني -، أي لم يمدّني بالمفردات/ .. تلك التي توازي (قدر) المفقود.. لكني سأحاول ، وأن حسبت ضعفي مُسيطراً على كلماتي، بخاصة حين استدعيتها لتكتب في مناقب إشتهرت لأبي عجلان: (عبدالله بن محمد بن سعد العجلان)، وعُذري في إلزامه .. أن :

لـو كـان حُسـناً واحـداً لتركتـه ..لكنـه حُسـنٍ وثـانٍ وثالـثُ

ف .. لو كان هذا الرجل في إحد مضارب البادية لكان شيخها، أو في احد المُدن الفاضلة لحُسب أميرها..

.. و ليس العجيب أن تكون له كل تلك الصنائع، من أعمال خير لا تعدّ[1] إلا (إنشاء الله) في ميزانه.. الذي نحسب أنّه قصد بها وجه الكريم .. بخاصة أنها لم تُعرف إلا بعد أفوله – رحمه الله-

لكن العجيب - أو لعلها (كرامة له)-: أن لا يُعلم عنها أو تبلغ الأذهان.. إلا بعد رحيله!، هذا.. الذي :

(آثـاره) تُنبيـك عـن أخبـاره .. كأنـك بالعيـان تـراه

فأنا لم أعلم أنه يحمل كل هذه الصفات (رحمه الله)، .. وهذا لافتة أُخرى تُصيرنا إلى عمق النظر.. فيمن حولنا، ف (كم هم الذين يستحقون منّا الثناء، ومع ذلك لا نعرفهم.. أولاً نعرف عنهم- في غمرة سلونا بالدنيا- إلا بعد رحيلهم)! فيجب أن نُنقّب عنهم.. (لنُعلي) من مقامهم. .. لكني تذكّرت بمثل هذا قول الشاعر:

وأحسـن مـا آثـر الفتـى حـين تطيـب بعـد المـوت أخبـاره

---

(١) ولعله مما يوافق المعنى الذي تقدم – في هامش (٢) ص٢١٢ -

أي وربي ، هذا هو (الفوز) والعزّ.. والفخر المنشود :

أن الإنسان يُذكر – بعد فراقه – بالخير العميم، أي: حين لا يُرجى ، ولا يُخشى ، بل.. ولا يُنتظر منه[1] مأمل لا كثيرٌ ولا قليل .. سوى (شهادة) له، ففي الحديث: { تو شكون أن تعلموا أهل الجنة من أهل النار} ، قالوا: بما يا رسول الله؟ قال ﷺ: { بالثناء الحسن، والثناء السيء} ، حتى يقول فيه صفيّة (أحمد الصليبي) :

مَـن يصـنع المعـروف لِلـهِ راجيـاً تملّـك في قلـب المحـبين منـزلا

فما بُثّ من "مقالات" سبقتها مشاعر وجموع شيّعته لمثواه، دآلّةٌ.. ودلالة أحسبها (شفيعٌ كافٍ) لأن أُسطّر عنه ،.. أو في حقه (على محبية) هذه المادة .

فما تلك – مما تلهج به الألسنة- من فضائل ومحامدٍ .. وصنائع (معروف) كانت سمته – رحمه الله – إلا (رسالة) لكل من ألقى السمع وهو شهيد :

أنه لا يبقى لدى البشر عنك سوى ما ترجوا به وجه الله مما تُقدّمه (سراً) بخاصة، وعلانية (مرادها: حثاً للآخرين لمحاكات صنيعك ، وتذكيراً لهم ، ومن ثم إدلالهم بهذا .. إلى وجوه الخير) ، وإن كانت الأولى أولى، وأكثر تقرّباً إلى الله { أنفق بيمينه ما لم تعلم شماله .. } – وهذا أحد " السبعة الذين تحت ضل ربهم" يوم القيامة-

فهذا (الفرق) الذي يُنشد لحسن ما يُترك.

أمّا ذاك الذي أسرف على نفسه – أو حتى اتبعها هواها - كما لمز (أو) أنقل بالمناسبة .. عن " د. محمد الخراز" ببسطاً.. لإيجاز ما تقدم (ص٢٨): ما

---

(١) فإني – ولا أزكيّ نفسي .. أو قلمي – أدعو المولى (دائماً) : أن يجعل عملنا خالصاً لوجهه، وأيضاً/ (مبذولٌ بجدٍ وصدق: لمن يستحق).

عسى أن تعيه الأذن الواعية .. بين الفريقين، فإن هذا أمر يحسن (أو يجب) التنبيه له كثيراً بهذا العصر، .. وذاك بقوله :

" هل نقول لمن مات (رحمه الله)، أم (عفا الله عنه)؟، قد يبدو السؤال غريباً، لكن أجدادنا الفاهمون كانوا يفرقون بينهما، فمن عِلموا عليه في حياته من الهنات والأخطاء الظاهرة دعوا له بالعفو، ومن علِموا من ظاهر حاله الصلاح والإستقامة في حياته طلبوا له الرحمة والمغفرة .

ليس فعلهم شرعاً ولا فتوى، لكنها فطرة نقدية أحسوا بها وجبلوا عليها ، وقد أندثر هذا التفريق الآن، ولا أدعو لتصنيف الناس حتى في الدعاء لهم، لكن أدعو إلى سلوك حضاري واعٍ، بأن لا نخشى شيئاً من تقييم الناس حتى بعد موتهم، ما دام قصدُنا حَسناً وكلامنا فيهم عدلاً، وإلا فلن تتغير أوضاعنا – أي : ما دمنا نخشى بطش المخطئين أو نرجو نفعهم وهم أحياء"-

مع هذه – أو لعلي أُلفت بـ / لأن بيّن لنا المولى عن الفرق حال الموت بين من أسرف على نفسه ، وذاك المجاهد لها بقوله: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية : ٢١] فإنه من باب أولى بين الكافر والمؤمن ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [الصافات : ١٥٤] .

هذه وجهه، والوجهة الأخرى لهذا المعنى، قيل: (ليس المطلوب أن يُحبّك كافة الناس، وإنما أن يحبّك الخيّرين منهم) – لأن حب الأشرار (غالبه) أتٍ لخصلة بك تتفق معهم، أو سوءةٌ علقت بك توافق صنيعهم!

بل .. ليُعلم أن من الخطأ مقولة (أجمع الناس على حبه) [١]! - .. أو حتى الأخذ بظاهرها-، لسببين، الأول : أنّ مِن الإستحالة وقوع ذلك ولو من باب المبالغة (وهي وصف الشيء بأكبر من قدره)، حتى أن الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام- والمزكون من ذي العرش سبحانه .. لم ينالوا هذا[٢]! قال تعالى مُنباءً عن هذا ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان : ٣١]

ثانياً : لا يُحمد – وهذا تجليةً لأولاً .. – للمدوح بهذا ، لأن هُناك من حبّه لك .. مكان تهمة (في قياس المنصفين).. كأصحاب الخصال السيئة .. التي قد يُفسّر حبّهم .. لإتفاقك معهم بها أو ببعضها ، ولأن فُنّد هذا القول بأن (الفطرة تغلب) فيكفينا علّة.. أولاً!

فلا تكره – عندها – ذمّهم لك، أو ممن لف لفّهم ، كما.. عليك ألاّ تحفل بمدحهم!

بل إن كراهتهم خيرٌ لك من محبتهم، لأن كسب محبتهم موازية لحوزك.. صنيعهم، فهي – على الحالين- : وُهمة في حقك!، قال (ابن المعتز) مُقرّباً:

مـــا عـــابني إلا الحســـو د، وتلـك مـن (خـير المعايـب)

.. وإذا فقـــدت الحاسديـــ ـــن فقـدت في الـدنيا المطالـب

---

(١) بل يستعاض عنها (أجمع أهل الخير- أو الفضلاء – على حبه)، وحين سئل أحد الأمراء مُعلّم عنده: ماذا تقول عن الشخص الذي يحبه كل قاطني إمارته؟، أجابه: (الأفضل أن يحبه الصالحون منهم، ويكرهه الطالحون).

(٢) فقد لقوا من أممهم بخاصة (الملاء)- وهم: المسيطرون.. المستصلحون من بقاء الضلال والفساد والتسلّط-.. ما أنباءنا عنه القرآن – مما لا يخفى - ، وإن كانوا في دواخلهم، خلاف ما ذهبوا بعداوتهم (لهم) ظاهراً ، كذا قال أبو جهل : (فمن أين لنا.. أن نأتي بنبيّ)!- يعني قبيلته-

فالحمد لِلهِ أن نالك منهم ذلك ، أو نالهم (منك) ذلك، لأن بعض الناس ينطبق عليه قول عباس العقاد: (بعض الكراهات خير لك من بعض المحبات)!

وبعد إيضاح لهذا: نعود لنثري عن فقيدنا :

أو هذا أمر ، والأمر الآخر/ هي تلك الروح الجميلة ، و .. الإبتسامة الدائمة.. ،النفس التي على الخير دآئبه، وحُسن تلطفٍ يُبلّغ عن أبعادٍ لشخصيته فتدركها من أول لقاء. .. بدا (لنا) هذا كثيراً على هيئته .. حين تم (بيننا) أول لقاء، وإن كان (فقط) من سنوات لا تتعدى أصابع اليد الواحدة - لنسبٍ تم قريباً-، فـ .. حضيت عندها به وبمعرفته ، لكنّ تعابيره لك تُنبيء وكأن (الرجل) يعرفك من القِدم .. إنشراح وابتسام وتلطّف .. يفوق التصور .

وبعـد ..

.. (أبو عجلان) من الشخصيات التي تعلّم سريعاً بالقلب فيما ترسل إليك روحه من رسائل تحسبها ، أو تحسب أن إملائها من قِبله (وقفاً) عليك!

لو كان (عبدالله) ممدوحاً.. حمدتهُ فكيـــف، وقـــد حـــاز المـــدائحُ

بينما هي – كَ (يديه) .. – مُشرّعة للجميع، ودلالة هذا .. أن (كلٌّ) يظن بظنك ، مما يدل على أنه – يرحمه الله – يتعامل مع الجميع بنفس تلك النفس، والروح والخصال .. التي استطاع بها (كسب) القلوب – التي عرفته – قاطبةً ، وبقدرة فائقة على توازن المشاعر لديه، أي حين بُثّت من لدنه، بين كل من عرفه، ما أعطفها – بعدُ – إلى (السعي) لتشييعه وداعاً أخيراً على أعناق قبلُ (حملهم) بقلبه، فاكتنز لديهم هذا (الرصيد) من المقام والمكانة.

وقبل أن أختم، أذكر له من العجيب – الذي ليس على أهل الصبر والأحتساب بعجيب – تعامله مع ما ألمّ به، سواءً بعدم الشكوى أو حتى شيء مما تبنّه النفس بالمعتاد، بخاصة حين أدرك أنه قد يقضي عليه .. فهذا لعمري ﴿ . . لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴾ [الصافات : ١٠٦]

فعزائي (الخاص) لكريمتنا الغالية – إبنة أخي صالح -: (أم سعد) جبر الله قلبها وأحسن لها العزاء .. وإلى آل (العجلان) زوجة .. وأبناء .. وبنات، ثم أخصّ بعدهم: أخاه (عبد العزيز): الصبر والسلوان.

ثم أثنّي – بهذا العزاء – إلى كل من عرفه .. وفقده بحق، بخاصة .. وقد بداء وأبداء رحيله.. عنهم: عن (فراغٍ) .. لا أحسبه مملوءاً عما قليل.

موجـــز :

قال تعالى ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ﴾ [الكهف : ٤٦] ، فأبشر بها (صيتاً) ومقاماً لدى كل من فقدك .. ، فـ :

مـــا (الباقيـــات) لكـــل إمـــرىءٍ سِوى الصالحات.. وحُسن الذكر

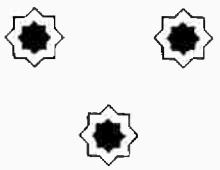

الخلاصـــة

.. أو (الثمرة) [*] من هذه الشجرة – أقصد (هذا المؤلّف) - :

الحقيقة .. عندما يرحل أحد الأعلام أو الفُضلاء أو ذوي الأيادي البيضاء أو حامل خصال الخير، تبثّ مُهجنا (عنه) تلك المقالات الممتدة على جبين الصحف، والمُسطّرة بماء القلب.. قبل ماء المداد، فماذا يعني هذا؟

أكيد أنه وفاء لأولئك وإيفاء لهم أو (دين) [٢] على من يحمل القلم .. ويملك أن يقول ليثري عنهم، وهذا أحسبه معروف ومُدرك، لكن [٣] .. ما أودُّ الإشارة إليه إزاء هذا (الصنيع) هو التالي :

هذه المقالات والشهادات والإطرا .. الوفاء.. و .. الخ، هي بمثابة (دعوة) لكل إنسان أن يُصلح من شأنه ويُعلي بهمّته ، ويحاول أن يترك لدى الأخرين أثراً يجلبهم ويأطرهم لأن يقولوا فيك كلمة حق تستحقها.. أو (شهادة) [٤] – خير – ترنوها بعد أُفولك لديهم .. فيما تُبقي، فإن قالواها فنعمّا.. وإن بتّوها فحسناً .. ولو ذُكرت على خجلٍ فلا بأسٍ، وإن حفظوها دواخلهم فذاك أدنى مبتغاك! فلا أقلّ بهذا .. من أن تكون من (الهمل الرعاع) الذين لا يُحرّك فقدهم بأحدٍ شيء .. سوى العزاء لذويهم فحسب.

(*) أو الغرض من هذا الطرح-.. وإن تقدم إشارات كثيرة، أحسب أخرها في مادة (عمتي) ص٢٩٧ بخاصة ما جاء في ص ٣٠٢-

(٢) وهذا نوع من (الأمانة) : { .. وعن علمه ماذا عمل به} - كما في الحديث-

(٣) .. فإني لا أحسب (مطلقاً) في هذا العطاء: فضول قول ، أو إثراءٌ فحسب !

(٤) .. كما وضّحت في ثنايا مجمل هذا – وانظر مثلاً : ص ٣٠٩-

كما أن هذا (على الأقل) يكفّ لوم اللائمين .. – فئة.. لا يُسلم من وشايتهم - بخاصة إن علموا أنه كان بأمكانك أن تبلغ ، ولم تفعل ، وعهدوا عنك أنه كان بأمكانك أن تصل ولم تحاول، بل .. وأدركو أنّك ملكت الأدوات .. والقُدرات، فلم تحرّك ساكناً، فالقول – مثلاً – يحتاج إلى فعلٍ يُمضيه..

فـلا عجـب إذا مـا قيـل قـولٌ وصـدّقت الـذي قيـل بالفعـال

فما (عذرك) أمام ربك - .. إن كفّوا هم عنك عذلهم!- ..

قال أحد الحكماء (الله أعطاك على قدره، وطلب منك على قدرك) .. فأنت (أنت) من يتبنّى لنفسه (مقاماً)، بما تترك عن قدرك.. ومقامك .

ثم.. لعل ما بين أسطر تلك (المواد) – المقالات- .. ما يبلّغ كل من: ﴿ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق : ٣٧] : مرادها.